رواية
الآثمون

رماش رحمة

الطبعة الأولى 1446 هـ - 2024 م
(ISBN) : 978-9969-571-45- 5
الإيداع القانوني: 2024/12

اسم العمــل: الآثمون
تأليف: رماش رحمة
عدد الصفحات: 224 صفحة
الصنف: رواية
قياس: 14/21

الناشر/ دار المثقف العربي للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبــوك:
https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكترونــي: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 0675 49 73 86
واتساب/0696 59 04 68
مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للمؤلف وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

للتواصل معنا انسخ رمز الاستجابة السريعة

رماش رحمة

رواية

الآثمون

المثقف العربي
للنشر والتوزيع

إلـى مـن يعتقـدون أنَّ التَّغاضـي عـن الأذيـة قـد يوقـظُ ضميـرَ المـؤذي...

إلـى أسـرى الوعـود والكلمـات... إلـى ضحايـا تخبطـات القلـب الصبيانيـة.

إهداء

إلى اولئك العجائز المؤمنات بالله دون الحاجة لدلائل، إلى المرهفة قلوبهم، وحتما إلى أصحاب العيون الجميلة.

إلى أمي الحبيبة التي سأوجه لها في كل مرة نفس الإهداء ولو كتبت ألف كتاب، دمت لي بيتا لا يهدم ودمت لك زائرا لا يرحل إلى كل من هو عضو في دائرة الحب خاصتي ،و إلى قارئي العزيز، فلتعلم أن كل سطر بهذا الكتاب قد نثر بحب فائق نتيجة شعور ما أو موقف . فإياك والظن أن الأحاسيس التي يحويها قد تتسم بالزيف.

• إن أحببتَ الرَّبيعَ ولم يأتِ يومًا، لا تعتزل الفصول. •

لطالما ذكَّرتها رائحة التُّراب المبلل بالمطرِ بذلك المكان، باللّيالي الباردةِ الصامتةِ... بصوتِ اصطدامِ قطرات المطر مع النّافذة، وأمسياتِ القراءةِ على الكرسي الهزّاز وبليالي ديسمبر الباردة.

كان ذلك كلُّ ما تبادر إلى ذهنها فور الوقوفِ أمام ذلك البناءِ القديمِ، أمَّا عن الذِّكريات التي ترتبطُ بالأشخاص فلم تقدر على انتشال ذكرى واحدةٍ جميلةٍ،

فالأسود قد غطَّى الزَّهري بظلمٍ متعمّد!

لطالما أحبَّت هذا المكانَ في طفولتها حبًّا جمًّا، لكنَّه سرعان ما تحوَّل إلى أكثر الأماكن جلبًا للإحباط وآخر محطَّةٍ ترتمي إليها بعد أن تفتك بها الحياة قسرًا لا رغبةً بهذا.

حاولتْ بجهدٍ أكبرَ أن تتذكَّر أيًّا من الذِّكرياتِ التي عاشتها فيه، فتبادرتْ إلى عقلها نهاياتها فقط، وتعذّر على ذاكرتها الأربعينة إسعافها في تذكُّرِ أمورٍ أخرى ولا لومَ عليها فقد دُرِّبَت جيّدًا على النِّسيان في المشفى الذي قبعت به لأعوام.

تقدَّمت نحو نافذة مغبّرة وحدّقت من خلالها في الباحة التي تطلُّ عليها في خلفيَّةِ البيت وحدّثت نفسها عن كميّة الإهمال الذي تعرّضت لهُ.

نظرت منها لثوانٍ إضافيَّةٍ ثم التفتت نحو أحدِ أركان الغرفةِ حيث تتجمَّعُ كومةُ ملابسٍ احتلَّها الغبار، واتَّخذت منها أُنثى العنكبوت مسكنًا مريحًا،

يتناثرُ حولها عددٌ من علبِ الأدويةِ المنتهية الصلاحيّة منذ زمنٍ بعشوائيّة مزعجة، وبعض الزُّجاجات قد تدحرجت لآخر مرَّة تحت ذلك الرَّف، إلتقطتْ إحداهنَّ ونظرت إليها نظرة سخريّةٍ ثمَّ أَلقت بها مجدَّدا.

بعينيها شديدتيْ الخضرة تتفحّص زوايا الغرفة وتحاول بصعوبة استنشاق أكبر قدر من الأكسجين صعب الإيجاد وسط كلّ هذا الغبار وتتسائل:

ـ ترى كم لترا من البنزين يلزمني لإشعال بيتٍ بأكمله؟

***

لطالما كانت غلظةُ قلبكَ هي السَّبب في كلّ الأشياءِ التي حدثت، إنّي أثقُ أنّهُ مصنوعٌ من فحمٍ وزئبقٍ، قاتم السّواد مشبّعٌ بأفكارٍ غير منطقيَّةٍ بدل المشاعر، بل لو لم يكن القلب هو من يبقيكَ واقفا لجزمتُ أنّك لم تمتلك واحدًا قط!

صراع القلب والعقل أمرٌ يكتسبه كلّ شخص، فغالبًا ما يكونُ القلبُ طائشًا متتبّعًا لشهواته، بينما الحكمةُ تجتمع بالعقل، ليشكّل كِلاهما حاكمين للأرضِ ذاتها، كلٌّ يريدُ للأمور أن تسيرَ على طريقته، إلّا أنت عقلكَ وقلبكَ توأمان تشابها في المضمون، لم يحاول أيٌّ منهما تنبيهكَ من نفسك.

في كلّ مرّة أحاولُ فيها اكتشاف الطينةِ التي صُنع منها كبرياؤكَ،

غرورك، ومعدنكَ النّادر. في كلّ مرّة أوشكُ فيها على تدوين النّتيجة وتسمية المرض الذي تعاني منه. تباغتني بظاهرة أشدّ من التي سبقت، لأغوص أنا في عمق محيطك المظلم من جديد و صخرة عملاقة مربوطة بحوضي حتى لا أطوفَ خارجًا. أحمل تحليلاتي البائسة وتوقّعاتي العقيمة. لطالما كان حلّ عقدتك أصعب تحدٍّ مرَّ علي، ودائمًا كانت تدهشني مواقفك وتبريراتك القليلة، فنادرا ما كنت تستعمل كلمة «لأنني» أو «لأنّ»، أفعالك لا تبريرات لها أنت فقط تفعل بلا دافع ولا اكتراث للنّتائج الكارثيّة، فأنت لا تعتقد بوجود العدل الإلهي، لا تنتمي لأيّ حزب ولا تؤمن بعقيدة معينة، لا تعترف بطائفتك وتجهل نسبك، تجوب الأراضي بحثا عن البلاء فقط، بحثا عن مخلوق تمارس عليه نرجسيّتك السَّاخطة لترضي غرورك القذر؛ نعم أنت هكذا بعيني.

سأخبرك بصراحة مفرطة أنني لست آسفة على سردي لهذه القصّة، لست معتذرة عن طريقة قصِّي لها، ولن أنتحب لأنّني سأدفنها بين أوراقي.

سأعترف أنّ قراري بكتابتها لا يتعدّى كونه محاولة أخيرة بائسة للتخلّص من لعنتها، فأنا على ثقة لا يتخللها شكٌّ أنّ كلتانا لم تعد بحاجة للأخرى، سئمت بشدّة من ملاحقتها لي في كلّ مكان ومن ظهورها المرعب في أحلامي وتحويلها إلى كوابيس مزعجة، إنّني أتبرَّأ منها بكلّ ما أوتيتُ من قوّة ورجاحة عقل، لا أريد منها أن ترافقني بعد اليوم، مع أنني لا أنكر أنّ الكتابة عنكَ أنت تحديدا تعدّ جريمة! جريمة سمح بها القانون وحوَّلها إلى حقٍّ من الحقوق. فأنت

أكثر من ذلك بكثير... أنت أكثر من أن تتمّ صيَاغتك في جمل، طولك لا يتسع بين الكلمات، وصفاتك من المؤسف أن تُحكى، أنت أمرٌ لا بدّ له من أن يُعاش. أعذر ظلمي، فما عاد بالقلبِ حيلة! لأنني وبعد كلّ الذي مررت به بسببك وكلّ سنوات الكره المفرط التي عشتها، أيقنت لاحقا في زمن لم تعد فيه بأنّ الحياة قصيرة جدّا، هي أقصر من أن نعيشها حاقدين، فالحقد يسرق من عمر الإنسان قرونًا، حيث تنهش ديدانه جدران القلب ببطءٍ شديد، يستنزف الرّوح ويدمّر الشخصيّة. فأصدقني القول إن أخبرتك بأنّ لا عُمر أهبكَ إيّاه بعد الآن. حان دوري لأعيش أيّامي كما تشتهي نفسي؛ لأنني بعد كلّ شيء أدركت أنّ المرء يتعافى من الحبّ بالتّأكيد، بينما الكره أمر يلازم صاحبه ويستمر في النّمو بدَاخله ويوضع معه في نعشه إذا تمسّك هو به.

لهذا السبب أظنّ أنّ الله أوجد التّسامح، لأنّه مدرك أنّ الإنسان أضعف بمراحل من أن يحتمّل عبء الكُره، فحَمله الثقيل الذي يزن أطنانا قد عاش يُثقل كاهلي طيلة سنوات، ينفث دخّانه في صدري ويغمّني؛ لهذا قبل كلّ شيء وبعد عدّة أشياء قررت أن أسامحك! سأسامحك وأزيل هذا الحمل عن قلبي المرهق؛ لأنّي أريد أن أتنفَّس مجدَّدًا، ولا أريد أن ألتقيك يوم تلتقي الخصوم، فتقاسيم وجهك آخر أمر أريد رؤيته في الدّنيا وفي الآخرة.

كانت الحياة في ذلك المكان بعيدة كلّ البعد عن المثاليّة ولا تمتّ للكارثيّة بصلة! لطالما تأرجحت بين الاثنين، إذْ لم أحظَ يوما بغرفتي الخاصّة، ولم أقتنِ كلّ ما رغبت فيه، لكن في المقابل أنا لم أعرف كيف يكون مذاق خبز الميتم يوما ولم يلسعني برد ليالي ديسمبر وأنا على أطراف الشوارع.

حياة الشّريد هي أمر جهلته حق الجهل، فرغم كلّ شيء نشأت في عائلة وهذا أمر أحمد الله عليه مرارا، فالقناعة تجعل كلّ رمادي يبدو ملوّنا، كما أنّ التنقيب عن السعادة وإخراجها من بين حطام الواقع الكئيب موهبة لا يمتلكها الجميع، لكنني امتلكتها لبعض الوقت! لنستهل بأبسط الأشياء، الإسم... أدعى دارين، يحمل عدّة معان في اللغة العربية، أفضل منها: الزهرة المتفتحة زكيّة الرائحة، فالزهور تتصدّر قائمة أشيائي المفضلة بعد الكتب.

قامتي الطويلة رغم صغر سنّي كانت أمرا يميّزني عن أشقائي الذين ينمو طولهم بشكل طبيعي، لكنّه لم يكن بالأمر المقلق بالنسبة لي.

ورثت عن أمّي لون عينيها وبشرتها، لتشكّل الخضرة والسّمرة لوحة ربانيّة نادرة، يترتّب عنها جملة تتكرّر لكلّ من يراني: "كيف للسّمراء أن تحظى بعيونٍ خضراء؟"

أمّا شعري فكان من نصيب عائلة أبي، كستنائي يطول حتّى منتصف الظّهر، بغرّة تنسدل على جبيني كادت أن تغطّي عيني اليسرى، لا يستغرق النّاظر سوى ثانيتين ليلاحظ الشّبه الجليّ بيني ووالدتي حيث تماثَلنا في الشّكل إلى حدّ بعيد، بينما اختلافنا في الشّخصيّات كان أمرًا لا بدّ منه.

كان إقناع كاهن بوذَا الأعظم بزيف إلَهه أسهل بكثير من إقناعها بإحدى وجهات نظري في كلّ مرّة نتناقش فيها، نقاشاتنا التي تتباين حدّتها حسب الموضوع المتناول، عن طريقة ارتدَائي ملابسي فهي تفضل أن تغصبني على ارتداء فساتين مزركشة تطول أكمامها بينما أُفضّلُ أنا السّراويل، فارتدائي لما يريحني حق من حقوقي الكثيرة كبشريّة! وعن صديقاتي اللاتي أتسكّع معهن، فلا أكاد أعرِّفها على فتاة حتّى تنتشل منها عيبًا جليًّا لم ألحظه لقلّة انتباهي «تلك قليلة أدب، وتلك صايعة، هذه لا تهتمّ بدروسها والأخرى كبيرة جدًّا». أمّا أكثر موضوع كان يثير نقاشنا بل شجارنا هو ولعي بالكتب، لم أفهم يوما سبب مقتِها لكتبي، أظنّ أنّ ضرّتها في حياةٍ سابقةٍ كانت كتّابًا! رغم أنّها متعلّمة إلّا أنّ الكتب تمثّل تهديدا بتضييع وقتي الثمين الذي من المفترض أن أضيّعه على دراستي وأعمال البيت حسب منظورها. أثق أنّ هذا هو حال كلّ أمّ في مجرّة درب التبانة، يتمتّعن بالمشاعر والقلوب والملاحظات ذاتها، تكاد تظن أنّهن يأتين من مصنع على شكل نسخ كدمى الباربي، من ثم يوزَّعن على البيوت بشكل متساوٍ. إنّها الأم وما أقرفها من حياة تفتقر فيها إلى أمّ. لا أعلم إن كان من حسن حظي أم سوئه، أن أولد الأخيرة في عائلتي، فقد جئتُ بعد ذكر محبوب، بكر أمّه وأبيه ورجل البيت، وفتاة قد نالت من الحبّ والدلال ما لا يقلّ عن أخيها. لآتي أنا أخيرا، وقد نفذت صناديق الحب لدى والداي، ولم يتبقَّ لي سوى المعاملة العاديّة التي لا أمانعها أبدا، لأنّها أكسبتني بعض الحريّة في اتّخاذ القرارات. كون لا

أحد اهتمَّ كثيرا بماذا تحبّ الصغيرة دارين أن تقضي وقتها أو أي تخصص ستختار في الجامعة!

كان من المفترض أنّ ولادتي آخر العنقود ستكسبني كلّ الدّلال المرجوّ لإفساد أي طفل في العالم كما هو حال سائر العائلات، لكن الأمر لم يجرِ كذلك مع عائلتي... أظنّ أنّ هذه كانت أوّل ضربة لحظّي لم يُصبها.

***

حيث بدأ كلّ شيء!

دغدغت أنامل أوّل شعاع شمس سطح جفوني المرهق بإزعاج متعمّد، حاولت صدّ هجومها الساطع متخذة يدي كدرع حماية، لكن دون جدوى، لأفتَحهما باستسلام تام بعد عدّة محاولات عقيمة بائت بطرد سلطان النوم عنّي، سلطاني المفضّل الأوحد. كانت عظامي تتزاحم فيما بينها على لقب أكثر عظمة متضررة، وكأنّ جسدي قفز أربعين سنة للأمام، أوليست العشرينات عمر الزّهور، أم أنني حظيتُ بالصّبار بدلا منها! ليصبح الإرهاق رفيقا لا يغادرني حتى مللته أنا وملّني هو بدوره.

رفعتُ رأسي الذي أصبح يزن عدّة كيلوغرامات، أتفحّص الموجود من حولي فقابلني هيكل «مُنى» المستسلم على السّرير المقابل، تفترش خصلاتها البنية وسادتها بحريّة_ كانت تبدو ساكنة _ وقد هدأت أصوات محرّك الدرّاجة الناريّة النّابعة من حنجرتها بعد ليلة من العروض الصوتية التي لا تكفّ عن إزعاج حاسّة سمعي المرهفة.

اشتقتُ إلى صباح استيقظ فيه بحماس لأنجز شيئا سهرت الليل أخطط له، لِمَ يجب أن يكون الصيف بهذه الروتينية القاتلة؟ لِمَ يجب على الشمس أن تكون بهذا الازعاج؟ فلا أحد يقوى على السير ساعتين متواصلتين تحت جحيمها ممّا يملي علي ضرورة بقائي بالمنزل، فضرَباتها آخر شيءٍ أبتغيه.

دلفت أمي إلى الغرفة، لتقطع حبل أفكاري وطبلة أذني في آن واحد! بصراخها العالي محتجّة عن سبب نومنا لهذا الوقت من النهار، شيئان لم يجد لهما العلماء تفسيرا، وجوب إنجاز الأعمال المنزلية في الصباح الباكر، ونبرة صوت أمي العالية عند مناداتنا.

لا بدّ أن يتحلّى المرء بالهدوء عند الاستيقاظ، حتى طبلات الأذن لديها مشاعر، خصوصا النّائمة منها.

أتذكّر تماما يوم هزّني فيضان باب الواد الجزء الثاني من فراشي، كقطٍّ وقع في دلو ماء.

كانت أمي قد أغرقتني أنا وغطائي بشلّال من المياه الباردة، هجوم مجرّد من الرّحمة ترتّب عن بعض العناد ورفض الاستيقاظ، لأقرر أنا استكمال رحلتي البحريّة في الحمّام بعد القليل من التذمّر والكثير من " لن أعيدها يا أمّي".

انتزعت نفسي من الفراش بسرعة بعد أوّل نداء، كجنديّ حرب جبان يهاب العقاب، فلا مزاج لي اليوم للمراوغة العقيمة التي قد تنتهي برحلة بحريّة ثانيّة.

عبر نافذة غرفة المعيشة بدا الجوُّ متقلّبا، ارتدت السّماء لونا رماديًّا قاتما وكأنّها على وشك البكاء_ تغير مفاجئ_ فقد كانت الشمس ساطعة صباح هذا اليوم، ومن غير العادي هطول الأمطار في هذا الوقت من الصّيف أم أنّ شهر أغسطس قرّر أن يصبح شتويا؟

وقفت لأحكم إغلاقها لأنني شعرت ببعض البرد بدأ يتسلل عبرها، حينها رأيتُ ظلّا لشخص يتقدّم نحو بيتنا، يكاد لا يُرى بسبب انتشار الضباب. عدت أتّكئ على كرسي الخشب الهزّاز أقلّب الصفحات في كتابي، وأرتشف شاي النّعناع باستمتاع. وقطرات المطر تضرب النّافذة بعنف تريد التسرّب إلى الدّاخل، حاولت تجاهل ضجيج دقّ المسامير بالحائط النّابع من حجرة أحمد والتركيز بأسْطري بصعوبة، نعم فهو لم يجد وقتا أنسب من بعد الظهيرة لتعليق الأشياء على حائطه.

وضعتُ كتابي جانبًا ونهضت لأفتح الباب بخطوات سريعة بعد أن سمعت طرقِه، كان الطّارق أبي يقف بطوله الفارع المعهود على عتبة الباب وقد بللته الأمطار المفاجئة.

ـهل أجبركَ الجو على الانتِهاء مبكّرًا هذا اليوم؟

ـ أظنّ أنّ الحياة تشاكسني، فلِمَ الأمطار في شهر أغسطس! أحتاج للانتهاء من العمل بأسرع وقت.

ـ لا أظنّها ستستمرّ لأكثر من يوم، لا داعي للقلق.

ناولته منشفة وثياب جافّة، واتّجهت صوب المطبخ.

كنت قد أرديت أوّل ستين ليلة من عطلة الصيف بالتنقل بين غرف المنزل، لا شيء يذكر قد أنجزته أو فعلته، أصحو صباحا لأفعل ما هو واجب على كلّ فتاة ـ قسمتها ونصيبها الأعمال المنزلية ـ أُنجزها بأسرع ما يمكن بالتناوب بيني ومنى، ثمّ أقضي فترة ما بعد الظهيرة مضطجعة بارتياح على كرسيي الهزّاز، ذكرايَ الأعزّ إلى قلبي من" ميما" الرّاحلة.

كانت تجلس عليه طوال ساعات النّهار تتأرجح ذهابا وإيّابا، تحيكُ شيئا ما بمجهود عجوز. رحلت هي لأُصبح أنا وَريثتها الشرعيّة وأستلم عرشها، فأضحى وسيلة راحتي الجديدة، أجلس عليه لأسْتغرق في عالم لم أجد له خصمًا جديرا ينافسه بين العوالم، عالمُ الخيال والواقع فيه شيئان متقاربان فخَياله متعة وواقعه استمتاع، عالم الكتب وما أدراك ما الكتب، في مفهومي أنا، هي

نتعدّى كونها مجموعة متلاحمة فيما بينها من الأوراق، ويتعدّى مضمونها مجرّد خزعبلات وقصص قرّر أحدهم سردها.

الكتب روح تطوف فينا ومن حولنا فنحن لا نعود كما كنَّا بعد المرور بها، هي تضيف لنا الكثير وتغيّر العديد. أصبح التحديق بالكلمات عادتي المحببة منذ سنوات، يجتاحني شعور بالإهانة إذا ما اصطفَّ كتاب جديد على رفّ المكتبة ولم ألحظه من قبل، أترنّح بين صفوفها متوعّدة كلّ كتاب منها بفترة إقامة لا بأس بها مدفوعة التكاليف ببيتي وعلى كرسيي الهزّاز.

أمِلتُ أن أظفر بإنجاز ما أو اختراع؛ نتيجة جلُوسي المطوّل في البيت، لكن هيهات، فالمَزاج معكّر منذ الولادة والرّوح لا تجد شغفا في شيء، لنصنّف قراءة الأطنان من الكتب على أنّها إنجاز ونستر العار.

مضى الصّيف وجزء من العمر، آن الأوان لعودتنا المعهودة لأكثر مكان نشتاق إليه ونملّ منه بعد انقضاء ساعة واحدة، حيث الأفعال العشوائيّة والكلام الغير موزون، مكان يختلف فيه الجميع ويتشابهون بشدّة في آن واحد. تجمعهم غايتهم وتفرّق بينهم الطّباع، المكانة الاجتماعية، والتربية.

الجامعة: كان أحمد في السنة الثالثة بعد أن أنهى تخصّصه السّابق قرّر إضافة شهادة تخصص آخر، أنا كنت في تخصصي الأوّل والأخير بطبيعة الحال بسنتي الرابعة، أمّا منى فسيكون تخرّجها هذا العام.

خيبتي الأولى بك!

انتشلني صراخ المنبّه بعُنف من سباتي العميق، معلنًا هو وأمّي وقت الاستيقاظ، كانت الشمس بعد في غفوتها، لن تباشر عملها إلاّ بعد ساعة.

لحظات... وانكسر هدوء النّوم، صراخ متواصل وازدحام على الحمام، تلك ثيابها لم تناسبها وذاك يسرّح شعره للمرّة الثلاثين على التوالي، فالجميع يجب أن يبدو أنيقا في اليوم الأوّل. شكّل ثلاثتنا فوضى عارمة سنندم عليه لاحقا بعد عودتنا.

انتهيت من ارتداء ثيابي ثم استغرقت في عقد شريط حذائي، فجأة دوى صوت عال قادم من جهة المطبخ يوحي بسقوط شيءٍ ما أو أحدهم.

انتفضت بسرعة وطِرت ناحية الصوت، لأصْطدم في الرواق بكلّ من منى وأحمد يهْرعان لنفس السّبب، دلفنا إلى حجرة المطبخ فزعين لنتجمّد ثلاثتنا عند عتبة الباب بعد رؤيتنا لأمّي وهي مستلقية على الأرضيّة إثر سقطة تبدو مؤلمة وارتسمت على ملامحها موجة غضب وعجز في آن.

يبدو أنّ قدر الحليب سقط منها ليتنَاثر في كل جهة واتجاه، تبعته مجموعة من الأواني ليقرروا جميعا الاستقرار على بلاط المطبخ بعد إحداث جلبة تكاد تُسمع من أوّل الشارع.

أسرعت لأساعدها على النهوض، بعد أن انهالت على نفسها بشتى أنواع الملامة والسّخط، ثم سألتها بدهشة:

ـما الذي حدث، كيف هذا؟!

وقفت تستند عليَّ بألم ثمَّ قالت:

ـــ كنت أحضّر لكم الإفطار، حتّى شعرت بقدمي تنزلق فوق شيء ما تبيّن لاحقًا أنّها قشرة موز، ولعثر حظي لم أفلت القِدر من يدي لذا سحبته معي لنسقط سويًّا بعنف.

بصعوبة تنفّست الصُّعداء ثمَّ أضافت: أمّا الأواني فقد بعثرتها إثر محاولتي الفاشلة في التشبّث بأيّ شيء يقيني قوّة السقوط.

حمدنا الله لأن لم يَحدث لها شيئًا خطيرًا.

كنّا على وشك إصلاح الخراب الذي عمّ الحجرة حتى قاطعنا إقبال أبي علينا، حدّق بنا وبالفوضى من حولنا بعين استغراب قبل أن يتكلم، وشرارة قد بدأت تتصاعد داخل مقلتيه بينما حاجباه قد اتّخذا شكل أقواس مقلوبة تنمّ عن الغضب:

ـما الذي حدث؟ أيّ نوع من الحروب قد قامت هنا؟

ردّ أحمد بحزم:

ـ أمّي من انزلقت عن طريق الخطأ فتسببت بحالة المطبخ هذه.

لم يستوعب أيّ منا الذي وقع إلّا بعد ثوان عديدة. لشدّة سرعة الأمر لم أستطع التقرير إن كان ما شهدته عينيّ حقيقة أم أنني لم أكن قد استيقظت بعد !

بعد كلام أحمد مباشرة، تقدّم خطوتين إلى الأمام نحو أحدهم ثمّ شحذ أسنانه ببعضها البعض واعتصر قبضة يده اليسرى بينما رفع ذراعه اليمنى ولوّح بكفّه في الهواء ليستقرّ على خدّها بعنف مصدرا صوت صفعة قويّة أوقعتها أرضًا!

نعم لقد ضربها! أبي صفع أمي وعلى مرأى من أولادها الثلاثة دون أن ينطق أي منهم ببنت شفة.

ـهذَا لكَي تستفيقي من غفوتك ولا تنزلقي مجددّا.

قالها باحتدام ثم ولّانا ضهره وانصرف خارجا!

وسط ذلك المطبخ علت شهقات الوالدة تحمل بين نغمات بكائها مزيجا من الصدمة وخيبة الأمل، وتصلّب هيكل ثلاثة أشخاص قد توقّف بهم الزمن وجفّت حناجرهم من الكلام، وتعطّلت أعضائهم وتراجعت وتيرة خفقان قلوبهم حدّ التوقف.

أمر كهذا لم يكن ليحدث في بيت يؤمن بحقوق المرأة ويقدّرها حقّ التقدير، بيت يعلّم بناته بالمدارس ويدرك أنّ تعنيفهنّ أمر لا يليق إلّا بالجاهلية الأولى.

بيت فيه حقوق الذكر لا تقل شئنا عن حقوق الأنثى، ولم يرفع فيه أحد يده على الآخر من قبل، لكنّه حدث؛ السبب مجهول والمتسبب قد غادر لكن الأمر حدث!

شهقت منى بصوت عال وركعت تحاول أن تهدّأ والدتها، بينما خرج أحمد دون أن يتفوّه بكلمة، كانت تجتاحه نوبة غضب عارمة ينوي على شيء ما.

أمّا أنا فلم أجدني إلّا أحاول تهدئة الاثنتين، ومن يهدّأني أنا فمجهول النّسب والهويّة؟

فاجعة كتلك منعتنا من حضور أوّل محاضرة بالجامعة بلا شك، نامت أمي بعد أن جفت أنهار قهرها، ظلّت منى تربت على ضهرها، بينما خرجت أنا أبحث عن أكسجين يملأ رئتي المتحجّرة وشعور واحد يجتاح قلبي «الكره...» الكره الشديد.

انطلق كل من عقلي وقلبي يتراشقان بكمٍّ من الأعذار والأسباب التي يفترض أن يكون قد تصرّف بهذه الطريقة نتيجة لأحدها.

لربّما غضبه أعمى بصيرته، فالغضب وحش بلا قيود لا ينصاع إلا لأمر شيطان، ويحتمل أنّه لم يكن بكامل قواه العقلية، تراه تعاطى شيئا ما أو تجرّع كأسين أو حتى زجاجتين من الخمر، أو ربما تلبّسته جنيّة ما قد دعس عليها في إحدى الوديان.

كلّها أعذار تافهة لا محلّ لها من الحقيقة، ظلّ سؤال واحد يتردد بداخلي: كيف كان بمقدوره ارتكاب أمر مشين كهذا؟

لطالما تعامل مع الجميع بطيبة! لم يكن ذلك الأب الذي يفسد أطفاله بالدّلال الزائد ولا ذلك الشخص الاجتماعي ناشر البهجة!

لكنّه أبي! أبي الذي يجيبك بالصمت عند طلبك لشيء منه، ثم يأتيك به في المساء

غضبه لا يتعدّى بعض التوبيخ والصراخ الأبوي المعهود، والذي حضينا ببعض من لسعات حزامه أيام الطفولة جزاء طيشنا.

لكنّه توقّف عند بلوغنا، فلا أذكر أنّه رفع يده على واحد منّا منذ زمن طويل، خصوصا أمي هو لم يسبق له أن آذاها!

ما أبشع كسر الخاطر! أُفضّل الموت ثلاثين مرّة على أن أكسر خاطر أحدهم

كيف له أن يؤلم كائنا رقيقا كأمّي، شخص يجعلُ من أحبّائه أولويات ومقدّسات، ويحوّل طلباتهم وعبء سعادتهم إلى واجب، أحد يضع نفسه آخر كل لائحة، آخر النائمين وآخر الآكلين.

متى صار الإحسان بالإساءة؟

أو لصَواب السُّؤال، كيف لها أن تسامحه؟ وهي من اعتادت حسن المعاملة والتَّقدير، أتذكّر تمامًا يوم ابتاع لها مجموعة من أواني الكريستال مكافأة لها على عشاء قد أعجبه بشدّة، لطالما اعتدنا على المودّة والرّحمة التي تسكن بيتنا بسببهما! فما سبب هذا التغيّر يا ترى؟

هزّني صوت تدوير مفاتيح الباب الرئيسي فانتفضتُ من مكاني بهلع، يبدو أنني غفوت على الكنبة لوقت لا بأس به. ظلامٌ حالك انتشر خارجا وداخلا، ومشرف الليل قد ترأس السماء يشعّ غرورا، وهدوء غريب قد عمّ المنزل.

لذا غادرت غرفة المعيشة أبحث عن آثار حياة أخرى، فقابلني ظلٌّ طويل عند مدخل المنزل يرتّب شيئا، كان هو... كان أبي، حدقت به لثوان وحدق هو بي بدون أن يتفوّه كلانا بكلمة، كنت قد توعّدت نفسي مرارا أن أخاصمه وأعاتبه أشدّ عتاب على فعلته صباح هذا اليوم، أردت أن أعطيه درسا في الأخلاق والمبادئ.

أعددت الكلام الذي سأوجهه إليه في رأسي وكررته مرارا حتى حفظته لكن بمجرّد أن تلاقت أعيننا، قرأت الإرهاق في عينيه، رقَّ قلبي لوقوفه بتعب وتلاشى كلّ الغضب والحزن، لم أحتسب كميّة حبي له عند توعّدي وعتابي مع نفسي، فلأيّ قبيلة انضم وكلاهما على أرضي التي أحب وأنتمي لهما؟ هل أظلم الآخر إن وقفت بصفّ أحدهم؟ ومتى قُسّمت عائلتي إلى قبائل وصفوف؟

وجدت نفسي أسأله إذا ما أكل شيئا لكي أضع له الطعام.

فأجاب بحشرجة صوت:

ـلستُ بمزاج حسن سأخلد إلى النوم، وأنتِ أيضا نامي

لا أعلم يا أبي ما الذي اجتاحك حينها لتحطّم قلوبنا جميعا دفعة واحدة، لكنّي قررت أن أترك الأمر لضميرك، ولأنّها المرّة الأولى والتي أؤمن بأنّها ستكون الأخيرة، لن أسألك عن الأسباب ولن ألومك على النّتائج، سأتغاضى عن الأمر وأجعل منه الذّكرى السيئة الوحيدة لنا معك؛ لأنّك أبي ولأنّ الإنسان بطبعه خطّاء.

أمّا عن أمّي فأنا على يقين بأنّها ستتخذ القرار الصّائب، ربّما لن تندمل جراحها بسرعة ولها كل العذر، لكنني أتمنى أن تفعل.

لم نمر بأيّام ثقال كتلك من قبل، ولم تعد المياه إلى مجاريها إلّا بعد وقت لا بأس به. كان الجميع شاردا هادئا لا يتفوّه إلّا بالكلام الضروري، كلّ يخبّئ غضبه وخيبة أمله في مكان بعيد ويعبّر عنها بطريقته الخاصة، اعتبرته أمي الذنب الأول الذي يقترفه زوجها المثالي بعد كومة من الاعتذارات التي انهال عليها بها، لذا مسامحَته أكثر أمر مناسب إن أرادت الحفاظ على المودّة والرّحمة التي كادت نوبة الغضب أن تخرّبها، تحجج هو بمشاكل وضغوطات واجهها في عمله واتهمها بأنّها السبب في فعلته هذه متوعدا ومقسما بأنها أولى المرات وحتما آخرها. طالت فترة غضبها واستصعب إرضاؤها لذا قضت عدّة أيام تتحاشاه وتصوم عن النظر إلى عينيه ممّا انعكس على ثلاثتنا بكهرباء وعدم ارتياح بالمنزل، أمّا هو تعلّق بالمحاولة حتى استطاع أن يُلِيّن ملامحها وقلبها بالنهاية، فقطرة حبر لا تعكّر صفو نهر بأكمله!

رغم صعوبة التقبل إلّا أنّ الوقت طبيب الجراح. استعدنا الجوَّ المعهود في البيت تدريجيا وتناسينا تلك الواقعة، ما عدا شخص واحد، شخص مبادئه أقوى من أيّ حب وحبه أقوى من أيّ علاقة. لم يرد التخطي ولا التناسي، لطّخ صورة أبيه بدهان أسود غير قابل للإزالة، فرغم إظهاره للعكس إلّا أنّ شرارة كره ظلّت تتأجج بداخله فمن يؤذي أحبائه لا مكان له بين ضلوعه حتى لو كان المؤذي حبيبا بدوره!

تزامنا مع الدخول الجامعي، عودة الفروض المنزلية، وإغماء الثامنة صباحا... تعكّر صفوي بشدّة، حيث لم أدرك قيمة العطلة ونعمة الأيّام المتشابهة حتى خسرتها، فالازدحام أمر لا يناسبني البتة، وتداخل ساعات النهار في بعضها شيءٌ يزعجني فأنا عاشقة الهدوء والبطء.

عشوائية مواعيد نومي صارت تشغل لي بالا، فالنوم سرّ هذه الحياة بالنسبة لي وليس الماء، بإمكاني استبداله بعصير أو بفواكه كما أنني سمعت عن كثيرين من البشر يعيشون في استغناء تام عن الماء، بينما إيجاد بديل للنوم هو ما لن يكتشفه العلماء يوما. الميتة الصغرى طريق مؤقت إلى عالم يخلو من المسؤولية والسياسة، لذا فأن تحظى بقدر كافٍ منه بشكلٍ منتظم لهِبةٌ يُشكر الواهب عليها.

اضطررت قسرا إلى تغيير برنامجي اليومي، ما عاد يحتوي كتبا كثيرة استبدلتها بدروس المنهج، فالتّركيز على الدراسة أمر لا بدّ منه، إن أخذتُ رغبة انتهائي بلا أعوام مضاعفة بعين الإعتبار، وتحقيق جزء من أحلامي العديدة.

أصبحت أنا والفتيات نتردد بانتظام على أحد المقاهي البعيدة عن الجامعة كيلومترين، نجلس ونثرثر لساعتين كل مساء قبل الذهاب إلى المنزل، فعادة ما نستمع لشكاوى حسناء الطريفة و سخطها من تصرّفات أختها الصغرى وعن تحميل والدتها لها مسؤولية جلّ ما تفعله. حسناء فتاة فاقت رقتها رقة زهرة النرجس، تتمتع بقبول يبثّ الاطمئنان في كلّ نفس تجالسها، تقابلنا صدفة قبل عامين، فرغم أنّها طالبة بجامعتي إلّا أنّ إحدانا لم تلحظ الأخرى إلّا بعد مدّة، حتى ذلك اليوم، كنت منصرفة من محاضرة مملّة فجأة اصطدمت بفتاة في الدرج تسببتُ في بعثرة أشيائها على الأرض، حدثٌ كهذا عهدناه في الأفلام بتكرار مملّ لكن الاختلاف الوحيد هنا أنّ الواقع لم يكن كتبا، كان عدّة أكياس من رقائق البطاطا، أظنّ أن بداية تقليديّة كهذه أكسبتنا بركة كلّ مخرجي السينما، تخيّلت على الفور أنَّ مجموعة من الشّتائم بمختلف اللّهجات ستنهال على حاسّة سمعي إثر فعلتي تلك. فغالبا ما تنتهي أحداثٌ كهذه بنتف شعر متبادلٍ وسنفونيّة مدّتها ساعتين من الشتائم والسّباب الأنثوي الجزائري، إلّا أنَّ ما حصدته كان اعتذارا لا يقلّ لطفا عن صاحبته لم يكن في الحسبان، اعتذرت لها بدوري بعد أن جمعت أشيائها وغادرت، بعدها تصادفنا بكثرة ومن الابتسامات، وإلقاء السّلام إلى الأحاديث الجانبيّة، وبعد أقل من أسبوع صرنا صديقتين بدون أيّة مقدّمات.

عدتُ إلى البيت بعد ساعتين من الثّرثرة المتواصلة لتجتمع كلّ تعريفات الإرهاق بين كتفي وكأنّني قضيت النّهار أتجوّل حاملة ليثا ما أو فيلا، حيث ثقُلَ رأسي بعد وجبة العشاء لا معدتي، لذا انسحبت ببطءٍ أشتهي مرقدا استسلم فيه لعالم الأحلام، رميت بثقلي على السرير علَّه يحتضنني، ثم سحبت هاتفي مقررة تفقّده كسائر مدمني التكنولوجيا الحديثة. كان كمٌّ من الرسائل باللون الأحمر قد اجتمع في صندوقي، فالكلّ يريد مني قرائته، إلّا أنّي تجاهلتها ومضيتُ أفتح رسالة هالة رفيقتي الثانية، وجدتها تخبرني بأمر مشاهدتها لأخي أحمد يتسكّع مع أشخاص مشبوهين جهة مسكنها، حينها عقدت حاجبي في استغراب ثم سألتها عن أيّ نوع من الأشخاص المشبوهين تحديدا، أجابتني في الدقيقة ذاتها "جماعة سامح تاجر المخدّرات!"

كان ما قرأته كالصّاعقة! حالتي لم تعد استغرابًا بل اتّخذت شكلَ صدمة قويّة... أحمد؟ مثال الأخلاق والرّجل الرّائع يتعاطى المخدّرات؟

لطالما كان الولد الأكبر والأحب، أحاطه كلّ من يعرفه باهتمام بالغ، من المعلمين والأقارب والفتيات، فحسن خلقه وأخلاقه كَانا دليله وورقته الرّابحة في الدنيا.

لم أستطع تخيّل أمر كهذا ليفعله أحمد، هل يعقل؟ تبادرت إلى ذهني بسرعة فكرة أنّه لم يعد إلى المنزل بعد، لذا أغلقت هاتفي وقرّرت مواجهته عند قدومه عَلِّي استوعب الحادث هنا ولعلَّه سوء فهمٍ بسيط، فكّرت أيضا

في إخبار أمي إلّا أنّ فكرتي بدت مريعة عند تذكري لقدرة تحمّلها وطريقة تعاملها مع الأمور، أثق أنّ ضغط دمها سينخفض قبل أن تسمع ما عندي أصلا لذا التزمت بخطتي عن سؤاله هو تحديدا.

بعد ساعة ونصف دقّ باب البيت بصوت خافت ومعه هاتفي، كان رقم أحمد على الشّاشة كعادته في هذا الوقت من كلّ يوم، نخرجت كعادتي أيضا ـأنا بوّاب السّاهرينـ فهو يسهر حتّى السّاعة التي يريد، ثمّ يوقِظ دارين لتدخله إلى البيت، كنت لم أغفُ بعد لذا خرجت بسرعة وفتحت الباب.

أحمد بصوت خافت:

ـ لقد استيقظتِ بسرعة هذه المرّة أيّتها الكسلانة أم لم تنامي بعد؟

ـلم أنم بعد، لمَ يجب أن تسهر إلى وقت متأخّر؟ لن أظَلّ بوابك إلى الأبد يا عزيزي.

ـضَحك مجيبا: بلى ستفعلين.

توجّه نحو غرفته وتبعته أنا، اِستغرب قدومي وراءه عاقدا حاجبيه:

ـماذا! أهناك شيء؟ تريدين أمرا مني؟

ـنعَم، تفضل وأغلق الباب، أريد أن أكلّمك بأمر .

ـتمَام، لا تفزِعيني .

كانت علاقتي به تختلف قليلا عن علاقات الأخريات مع أشقّائهم الأكبر منهم، غالبا ما تجد الأخ الأكبر متسلطا، شريرا، و قاسيًا كما تخبرنني الفتيات،

فهنّ يشتكين من إخوانهنّ على الدّوام، إلّا أخي كنّا كالتّوأم رغم فارق السنّ الذي بيننا، تسكّعت معه ولعبت أكثر مما فعلت مع منى، لذا فالتكلّف هو أمر لم يحدث بيننا يوما.

ـأحمد سأسألك وأجبني بصراحة.

ـ طبعا يا عيني اسألي.

ـهل تتعاطى المخدّرات؟

نظر إليّ باستغرابٍ تام واضحٌ أنّ سؤالي كان آخر ما يتوقّعه، ثمّ انفجر ضاحكًا. حتّى كاد أن يوقظَ النَّائمين.

ـأخفضْ صوتك، يا إلهي، اسكت، أنا أتكلّم بجدية، أحمد توقّف.

حاولت اسكاته عبثًا، وبعد دقائق من ضحكه مجهول السبب. تنهد وقال:

ـأنا لا أتعاطَاها لكنّي أظنّ أنّكِ تفعلين، لمَ تسألينني هذا السؤال بعد منتصف الليل؟ هل عدتُ فاقدا للوعي؟ ألَا تعتقدين أنني إن كنت أفعل، سأعود للبيت غير مدركٍ لمَا أقوله ثملا مُخَدّرا؟

جائتني لحظة إدراك، فعلا ما يقوله صحيح! لم يعد إلى البيت بحالة غير عاديّة يوما.

ـوما أدراني أنا؟ لكن لا تنكر أنّك تتسكّع مع سامح !

ـ ومِن أين لكِ خبر تسكّعي مع سامح؟

أجبت بنفحة غرور:

ـلديّ مصادري كما تعلم.

ـمصَادر أم صديقات واشيات؟ لقد رأيت هالة تمدد من شرفتهم كادت أن تسقط خلال رصدها لتحرّكاتي.

ـ المهم أنّني أعلم، لذا أخبرني لمَ تتسكّع معه هل نفذَ الشباب؟ تعلم أنّ سُمعته سيّئة.

ـ بلى، لكنني وجدته شخصا طيبا رغم أخطائه لذا اتسكّع معه، هذا لا يعني أنني أتعاطى ما يبيع.

ـلكنّك لن تعلم حين يدسُّ لك شيئا ما في الشراب أو حتى يجبرك على تعاطيها، إنّه رفيق سوء.

ـتحوّلتي إلى أمّي الآن؟ هيّا انهضي دعيني أنام فالإرهاق يقتلني، تحرّكي إلى غرفتكِ هيا.

قالها وهو يدفعني خارجًا.

ـلم ننتهِ بعد، سنتكلّم في هذا أكثر لن تفلت منّي.

رجعت إلى سريري وفكّرت فيما قاله ثمّ دعوتُ الله أن يحميه من كلّ شر، فهو شخص بالغ وأظنُّ أنّه يعي ما يفعل؛ لذا أرحت نفسي وأغلقت جفوني باستسلام.

اِلتقينا من جديد

في اليوم التالي أفزعني صخب رنّة هاتفي، لأنتفض بهلع، وعلى ما يبدو فإنّ استيقاظي بهلع أضحى عادة لدي، كان رقم هالة على الشاشة بخطٍّ عريض، لذا استطعت قراءته رغم عيني الشبه مغلقة، تراها باتت تحلم بي!

ـألو، هل حلمتي بي خلال نومكِ أم ماذا؟ السَّاعة لم تتجاوز السَّادسة صباحًا.

قالت بنغمة حماس عالية ثقبت طبلة أذني:

ـ ما بال الجميع صاخب عند الصباح؟ انهضي فورا، أردت التأكّد من أنّك ستحضرين حفلة اليوم فالجميع قادم ولا بدَّ أن تأتِ أنتِ أيضا.

ـعن أيّ حفل تتحدَّثين أليس اليوم السبت؟

ـ بلى، وهل من يوم أفضل لحضور حفلة بالجامعة عدا السبت؟ تحرّكي سأمرّ عليكِ لنذهب سويّة، لا أريد أعذارًا.

أردت بشدّة أن أقول لها أنّني سأظلّ بسريري ولست ب متزحزة عنه حتى الثّانية بعد الظهر، وددت لو أغلقت السمّاعة فقط، لكنّ إصرارًا كإصرار هالة، لم تشهد مثله البشريّة بعد.

إن اضطرّ الأمر ستسحبك من السرير وتأخذك إلى المكان الذي تريده، عرفت بالعضو المرح ناشر البهجة ومحبّ التسوُّق والحفلات والرّحلات، بالمختصر هالة دليل سعادتنا وراحتنا. كثيرا ما أرفض الخروج معها، لكن

أكتشف لاحقا بعد أن جرّتني قسرا، أنَّ الخروج نفعني وكنت لأندم لو لم أرافقها لأنّ نفسيّتي تتحسّن بمجرّد مجالستها.

بعد حوالي ساعتين من النوم الإضافي نهضت كمن لا خيار لديه، غيّرت ملابسي وتناولت ما وجدت وذهبت أبحث عن أمّي بما أنّ لا أحد سواها بالبيت، فأحمد خرج وكذلك منى، أمّا أبي فكعَادته يكون أوّل الخارجين مع بداية ضوء النّهار، ينجز ما يجب إنجازه من عمل في قطع الأخشَاب وبيعها.

وجدتها منشغلة في المطبخ كعادتها، لا تغادره إلّا لنشر الغسيل أو التنظيف بغرفة أخرى، تحبُّ أمّي الطّبخ جدًّا ما أكسبنا وجبات لذيذة على الدّوام، نتفانى في عملها حدّ العبادة.

ـأمّي أنا ذاهبة، تقام حفلة ما في الجامعة وهالة أصرت عليّ للذهاب.

ـما نوع الحفلة التي تقام يوم السبت؟

ـصدّقيني والله لا أعلم، طلبت منّي الحضور، وها أنا ذاهبة لأكتشف مضمونها.

ـحسنًا أحضري بعض الخضار عند عودتك من السوق المجاورة.

ـتحت أمركِ سيّدتي، وداعا.

قبّلت ثغرها وغادرتها، لألتقي بهالة عند مدخل البيت على وشك طرق الباب.

ـيا سلام! أنتِ جاهزة منَ الآن، كنت أفكّر في كيفيّة جرّك إلى خزانتك هذه المرّة.

قالت بسخرية:

ـفلتقولي أنني خفتكِ هذه المرّة.

ضحكنا بصوتٍ عالٍ ثمَّ مضينا.

علا صوت الموسيقى في الداخل، وكأنّها موسيقى حفل تخرّج، كانت الكعكة تحمل حرف ياءٍ كبيرا.

التفتّ أسال هالة عن صاحب الحفلة فأخبرتني بأنّه طالب في جامعة أخرى أنهى دراسته وقرّر إقامة حفلة بجامعة في مسقط رأسه، تعرّفَت عليه عن طريق أحد أصدقائها وصار صديقها عبر الفيسبوك لذا دعاها إلى حفلته.

ـوما اسم خرّيجنا يا ترى؟ كيف لم تتكلّمي عنه من قبل!

ـلا أعلم لمْ يسر الحديث عليه يومًا، المهم اسمه يزن صحراوي!

وقع دويّ اسمه كصخرة عملاقة على قفصي الصدري حوّلتني من متنفس عادي إلى شخص يعيش حياته بقوارير الأكسجين، طبعا هالة لم تكن على علم بماضيَّ المزهر والمظلم في نفس الوقت مع ذلك الشّخص، لم تكن مدركة أنّها اليوم أحضرتني إلى جحيمي حيث يقبع جلّادي ومن أحرقت نفسي وقطعة من قلبي، لأنسى كيف يُلفظ اسمه ومن كم حرف أبجديٍّ يتكوّن، لو أنّها علمت ما كانت لتحضرني. لعنتُ الصُّدف ونفسي بداخلي مئة مرّة

لعدم سؤالي عن صاحب الحفل قبل القدوم، ثم التفتّ بضيق نفس، أمشط الحاضرين من حولي علّي ألتقط له صورة أو صوتًا، فرغم كلّ شيء، ورغم وجودي الذي سيبدو محرجًا بعد قليل، إلّا أنّ العين اشتاقت لنفس الصورة من جديد. مضت ربع ساعة، استعاد فيها عقلي شتّى الذّكريات المتعلّقة به اللّقاء، الشجار، الرّحيل، ليالي الاكتئاب، وصباحات الدّلال والمرافقة إلى المدرسة. يقولون بأنّ الوقت كفيل ليندمل أيّ جرح، لكن لم يحددوا كم يحتاج من الوقت، فأربع سنوات لم تكفِي ليندمل جرحي. ها أنا أقفُ على ساقٍ مرتعشة وعين تبحث بنَهم، أمّا القلب! فلم يعد يسمع من سرعة ضرباته مجدّدا!. بعد لحضات مرّت وكأنّ جبل طارق تربّع على صدري، علت تصفيقات وصفير الحاضرين «خِرّيجنا قادم» للحظة لم أرد فيها رفع رأسي والنّظر، وكأنّني لم أكن أحترق شوقا لرؤيته منذ قليل، للحظة فقط للحظة ترددت وأردت المغادرة بصمت والاستمرار في دفن صورته وكلّ شيء يخصُّه لكنّي لم أفعل، وددت لو تشجعت وغادرت المكان لكن لم أقدر. رفعت نظري إلى المصطبة الواقف عليها حيث يتمّ تكريمه من قبل شخص ما، يفترض أنّه والده، لا أعلم، فالرّؤية بدت ضبابيّة من حوله، بينما يبتسم هو بغرور واضح لا يمانع فيه أحد، وقد أَرجع خصلاته فاحمة السّواد إلى الخلف بشكل جميل يتناسب مع بذلته الرّماديّة، العجيب أنّ أمرا لم يتغيَّر فيك! أم أنّها أنا من تراك بنفس المنظور كلّ مرة؟

أردت جمع أكبر قدر تتَّسع له ذاكرتي من الذّكريات والتَّفاصيل والأصوات المحاطة بك؛ لأتلوها على ذكرياتي التي تخصّك في ليالي الاشتياق المريعة، لم أعلم من قبل أنني يائسة إلى هذه الدرجة! أظنّ أنّ القُوّة تزورني بعيدا عنك فقط، أمّا أمامك بشكل ما تنكسر كلّ قوانين الفيزياء، وتذوب كلّ معاني الكبرياء.

لكلّ شخص في الدّنيا أحد من البشر يستثنيه من قوانينه ومبادئه وكل الشكليات التي يعامل بها الأشخاص الآخرين، كنت أنتَ استثنائي الوحيد، كنتَ مُلفتي ومفلتي أنا التي اعتادت الإفلات ولا يقدر على إلفاتها شيء، أنت الوحيد الذي حظى بامتيازات دارين وجلّ انتباهها لعدّة سنوات، وربّما الآن أيضًا.

بعد أن تمّ تكريمه شعرت بنفحة فخر، أنا التي لا محلّ لها من الإعراب في حياته بأيّ شكلٍ لأشعر بالفخر به لكنني فعلت. رؤيته في ذلك الرداء كانت أمرا قد غاب عن مخيلتي، لم أفكر به يوما كم سيبدو أنيقا وهو يُرتّب قبعته المربعة. أظنّ أنّ القدر تركها مفاجئة لي.

بعد لحظات صعد فيها كل معارفه ليهنّئوه، اتجه هو إلى الأسفل ليُحضر أحدهم! فليغمى عليكي يا دارين ولتنغرز ألف سكين بقلبك التّافه المعلّق بشخص نسيَ وجوده، التفتي وغادري المكان بذرّة الكرامة التي تبقَّت لك، انصرفي فمكانك غير هنا ولا شخص يعنيكي هنا. صار قلبي ينبض في كلّ مكان

بجسدي أظنه انتزع نفسه من بين ضلوعي وقرّر البحث عن مكان آخر بعد الذي شاهده.

كان يشبك يده بيد شخص ما ويسير معه نحو مصطبة التكريم، أظنها أنثى!

حتما إنّها أنثى، فالكعب العالي والشَّعر المفرود صفات فتاةٍ أليس كذلك؟

لم أكن أنصت لما يقوله عبر المكيروفون وهي تتشبثّ بمرفقه لكن كلمتان فقط كانا جلّ ما فهمته من كلامه، حيث قال فيهما بأنّها خطيبته التي ساندته طيلة مشواره الدّراسي «يا حبيبي إذًا خطبة مرّة واحدة، فلتُهدمي مجددا يا دارين». لتنكسري مليار مرة في الثانية، حتى تكتفي وتغادري حياة لم تعودي فيها. استفقت من غفوتي بعد أن تسمّرت عيناه بعيني خلال خطابه الملهم عن كمية احترامه وحبّه لها. لم تكن صدمته أقل من خاصتي بالطبع، فجحوظ عينيه قد فضحه، لكن شيئا فيّ لم يتحرَّك، ولستُ أهتم إن فعل شيئ به، حاول متابعة خطابه بعد صمت قليل جعل الحاضرين يلتفتون إلى مكان نظره بينما انتزعت أنا نفسي من بقعتي وأدرت له ظهري لأُهُمَّ بالرَّحيل، فلحقتني هالة تحاولني بالبقاء متحججة بأنها ستعود وحدها إن ذهبت أنا؛ لذا وقفنا لبضع دقائق نتشاجر بهدوء، حتى طرق صوته حاسة سمعي عن قرب واضح، كان يقف خلفي يناديني باسمي الذي ألعنه مليون مرة حين يلفظه هو، التفتت بطبيعيّة تامّة كاذبة

_آآه يزن!

كشف عن أسنانه ناصعة البياض في ابتسامة عريضة ابتسم معها بنُّ عينيه، الذي حاولت عبثا عدم النظر إليه. ثم قال:

ـماهذه الصدفة لم أعلم أنّك حضرتي! لقد مرّ وقت طويل، كيف أنتِ؟ه بدا مرتبكا بعض الشيء لا يرتب جمله، على عكسي تماما فقد تصنّعت العادية والتفاجؤ السَّطحي.

أردفت هالة:

ـهل تعرفان بعضكما؟

ـنعم منذ زمنٍ طويل.

أنقذت الموقف قبل أن يفضحني مع هالة إن كان هذا ما يفكر به.

ـصديقتي هي من أحضرتني إلى هنا ولم تخبرني أنّه حفلك، لم تكن على علم بمعرفتي بك... المهم، مبارك لك التّخرّج، بدوت رائعًا.

ـشكرا لكِ، العاقبة لكِ لنراكِ فوق هذه المصطبة.

ـ إن شاء الله، لم يبقَ الكثير.

تصنعت الضحك بقدر المستطاع بعد أن رحلت هالة تاركة إياي أقف مقابل جلّادي يفصلنا إنش واحد، يضيق نفسي كلما نظرت بوجهه لكن أشتت انتباه قلبي وأفتح أذني بشدة لألتقط آخر كلمة قالها وأردّ عليها.

أتعدني أن تحفظ سرّي إن أخبرتك، أنني وقعت بعينيك قبل أن أقع بك؟ سوادهما ثقب أسود يغتصب انتباهي، رفعت رأسي أتفحص قسمات

وجهك المريحة ثم فتشت عن نفسي بين رموشك الطويلة، بحثت عن انعكاسي داخل بؤبؤك، وما رأيته كان كصاروخ صهيوني، هدم جدار قلبي الفلسطيني، لم أجدني بالداخل! لم تكن أنا صاحبة البيت ولم أرى ابتسامتي ولا حروف اسمي الخمسة، بل رأيت كائنا آخر، أنثى أخرى تجوب عينيك بحريّة تلوح لي وكأنها تثبت أنّك تخصّها، وأحد ممتلكاتها.

ثمّ في لحظة ما قفزت من بؤبؤك وصارت خلفك تناديك باسمك خاصتي! التفت أنتَ لها بكلّ ما فيك ويخصّني. لم يكن سمعي جيدا لكن أظنّك طلبت منها الانتظار لأنّك تُحدِّث شخصا مهمًّا، تأففت هي بدورها وانصرفت، أرجعت نظرك إليّ، لتجدني قد لملمت شتات نفسي واضح الانكسار للمرّة الثانية على التوالي، وقررت توديعك للمرّة الأخيرة يا مسبب انقباضات قلبي المهان.

طلبت منّي البقاء لمدّة أطول فتحجّجت بغضب أمّي بدل أن أخبرك أنّ الصَّبر نفذ منّي، ولم يبق لي قلب لتَعتصره بعد الآن، فقد حوّلته إلى قطع صغيرة وشربته مع العصير، وتركتني متوعّدًا إيّاي بحضور حفل تخرجي الذي لن تحضره يومًا.

خارج تلك القاعة أخذت نفسًا عميقًا وكأنّه أوّل أكسجين يدخل رئتي المتضرِّرة، حاولت تنظيم وتيرة خفقان قلبي المزعجة وألم بطني، لكي أعرف طريق البيت. ثمّ مضيت وكلّ ذرّة فيّ محطّمة إلى قطع أصغر حجما.

هل جرّبت يوما شعور العودة إلى نقطة الصفر؟ حيث بدأ كلّ شيء، حيث كنت أنت شخصًا ضعيفًا لا حول ولا قوّة له. تتحكّم فيك نزوات شخص آخر، كان ذلك شعوري، وكأنني تسلّقت القمة لسنوات ثم دفعني أحدهم من أعلاها إلى الأسفل بقسوة. عدت إلى حيث بدأت، ارتديت سلاسل عينيك مجدَّدًا، وأغلقت على قلبي بقفص مع قلبك الغير مبالي.

قرَّرت تلك اللَّيلة أن أقيم جنازة لقلبي، جنازة لم أتجرّأ من قبل على إقامتها رغم كل الذي حدث من قبل. لا بأس بليلة اكتئاب وحزن على حظي العاثر وغضب الدُّنيا عليّ لتأخُذك من بين رموشي ليديْ أنثى أكثر طولا.

فتحت الدّرج المجاور لسَريري حيث يقبع كتاب ما، مذكراتي التي تخصك. أخذت أقلّب صفحاتها القديمة عَلِّي ألتقط شيئا جميلا.

ديسمبر *0202:*

لكنني لم أطلب منك البقاء، ولم أبكِ لرحيلك، ولم أترجّك لعدم تركي.. كنتُ أنا مَن بادرتُ بالفكرة، فكرة التخلي عني. لم أكن لأطرحها لو لم أكُنْ على قدرٍ من اليقين بأنك سترحب بها.

ربَّما لم أتوقَّع أن ننتهي بهذه البساطة، وتوقَّعتُ بعض الدراما غير المرغوب فيها، وربَّما توقَّعتُ أن أسمع كلمات، مثل: سأشتاق إليك، أو سيكون صعبًا أن أعتاد الغياب... لكنْ لا، فتوقُّع الزّلازل التي ستضرب بعد عشرين سنة أسهل من توقُّع ردود أفعالك سيِّدي.

حتى في الأمور العادية أنتَ تفاجئني، وهذا أكثر ما يثير حنقي... كونك مختلفًا، مختلفًا رغم أنفي!

أغسطس *9102*:

عزيزي السيد الغير مبالي، لا أستطيع أن أقول من منا أرهق الآخر أكثر، أو على من منا يجب أن أضع اللوم. لا شك في أن كلانا مذنب.

أردت أن أصف الأمر بالخطأ، لكن الخطأ ليس أمرًا يخطط له. الليلة، وبعد مجموعة من الرسائل، أنهينا الأمر قبل أن يبدأ. فكرت في أنك ستطالبُني بالبقاء... في الحقيقة، أيقنت تمامًا أنك لن تفعل، فوضُوحك معي كان منذ البداية فعلاً وقولًا سيدي. كانت أنا من أصرت على أنك غير البقية ومختلف، ويا لحبي لكل ما هو مختلف. أخبرتك يومًا بأنك مختلف فأنكرت وجزمت عاديتك التامة، وهذا كان إثباتًا على شكوكي، لأن المميزين فعلًا لا يدركون ذلك.

أردت فقط أن أراك تخطئ، لأفوز برهاني مع نفسي وأؤكد أنك مجرد شخص عادي يزيف مواقفه وشخصيته، لكنك لم تفعلها.

وبعد العديد والكثير مما عشنا معًا، لاحظت أنت كم أننا غير مناسبين لبعضنا البعض حسب رأيك، وكم كنت أنا أغرق في بحر غموضك، وكم كان هدفك واضحًا ثابتًا بالنسبة لك دائمًا. كان كل شيء واضحًا، لكنني فضلت عدم النظر طوعًا.

أغلقت الدفتر وجفوني بعد أن احتدت نبضات قلبي، لم أفهم سبب انزعاجي بالتحديد. ألسنا منفصلين؟ بلى، ألسنا لا نتواصل؟ بلى، وهو أمر مؤكد أن أربع سنوات كانت كفيلة له لينسى ويستكمل حياته مع شخص يراه يستحق. يستحق نظرته، وقلبه، ووقته الثمين. ليس من عادتي أن أقارن نفسي بشخص ما، فأنا أؤمن حق الإيمان بأن الله خلق لكل شخص مميزاته وسيئاته، إلا أنني لم أكف عن مقارنة نفسي بها منذ رأيتها. بالنسبة لي، لم أستطع العثور على بن كالذي في عينيك مجددًا، لا ابتسامة تشبه ابتسامتك، ولا صوتًا يقارب نبرة صوتك. الجميع متشابهون حد الغثيان. لا أحد يحب الكتب كما أفعل، ولا يوجد أسود أفحم من سواد خصلاتك. درجة سمرتك لم أرها تتكرر في بشري ثان، وطريقة كلامك لم أصادفها مجددًا، لم يكلمني أحد بكل تركيز وكأنه يفصل ثوبًا لرموشي. كلهم متشابهون. هل فعلت أنت؟ هل رأيت فيها جمالًا يستحق نسيان ملامحي؟

أتُفضّل الشقار على الكستنائي، ولم أكن على دراية بهذا؟ أم أنّها تتثرك حبًا على ورقها أفضل مني؟ هل تعاملك بطريقة جهلتها أنا؟ ترى هل تطالعك بنفس نظرتي أم أن نظرتها تهز كيانك كما كانت نظرتك تفعل بي؟ هل تشاركك حب دوستويفسكي وتمقت أرسطو؟ وهل تدعك وشأنك حين تريد البقاء وحيدًا؟ هل تفهمك كما اعتدت أن أفعل؟ أم أنها تتقن فنك ببراعة لم أقدر عليها أنا؟

قضيت ليلتي أسأل نفسي هذه الأسئلة التي لن تجاب يومًا. حتى تعب النوم مني وأغرقني به...

صباح اليوم التالي استيقظت بنشاط، فالحدَاد يقام ليوم واحد في طائفة قلبي. والحزن على من يهتم أرحم بكثير، لأن نحيب الغائب أمر لا فائدة منه بأي شكل. تخطيتك في ليلة كما اعتدت أن أفعل مع الجميع، هذه المرة لن أستثنيكَ يا عزيزي لأنك وجدت من يفعل. هنيئًا لنا! فأخيرًا أنت أطلقت سراحي، وأنا طرت بعيدًا جدًا. لتكن بخير، ولأكن أنا في أفضل حال، وليعش كلانا منفصلين مطمئنين! ولتحيا ذكراك في النسخة القديمة من قلبي، أُطالعها كلّما مرت عليّ حروف اسمك، بدون تأثُّر يذكر.

قررت أخذ حمام بارد، ينشط دورتي الدموية، ثم سأقرر ما يجب فعله في يوم السبت.

ملأ ضجيج منى البيت خلال بحثها العقيم عن وثيقة ما قد ضاعت منها، والملام هو أحدنا وليس ذاكرتها الضعيفة. فغالبًا ما تضيع الأشياء ولا تكف عن إلقاء اللوم على الآخرين متشبثة بفكرة قوة ذاكرتها التي يصعب إنكارها. خرجت أبحث معها على أريح سمعي من طنينها. قلبنا البيت رأسًا على عقب، فتشنا الخزانات وتحت الأفرشة، وبينما أنا مستغرقة في تقليب أحد الدفاتر، إذا بورقة ما تقع من بين صفحاته لتستقر على الأرض بشكل مغلق.

التقطتها بفضول لأفتحها، على ما يبدو كانت وثيقة تقديم طلب عمل، قد وجهت من السيد عبد الحميد إلى إحدى شركات الأخشاب بالبلد، أنه أبي. لكن مكان العمل كان بولاية الطارف، التي تبعد عن ولايتنا كثيرًا. استغربت الأمر بشدة، فلِمَ قد يريد تغيير مكان عمله؟ ألن يعجبه مدخوله الحالي؟ وكيف لم يخبرنا بالأمر؟ تركت منى دون أن أخبرها وخرجت حاملة الورقة بيدي أبحث عنه فوجدته قد انتهى للتو من صلاة الظهر. انتظرته حتى أكمل تسبيحه، ثم رفعت الورقة في الهواء مشيرة إليها:

ـأبي، لماذا لم تخبرنا أنك تريد العمل خارج الولاية؟

ـمن أين أحضرتِ هذه؟ أعطيني إياها.

قالها بنبرة هادئة تشي بنيته لإخبارنا في الوقت المناسب، لكنني اكتشفت الأمر مسبقًا.

ـسأخبركم بكل شيء عند العشاء، اذهبي الآن.

خرجت من غرفته وكلي تساؤلات. أبي لم يسبق له أن تركنا ليلة واحدة، فكيف إذا حصل على العمل، سيضطر إلى المكوث هناك لمدة طويلة؟ ماذا سنفعل نحن؟ لم يحدث أن ترك البيت. ترى كيف سيكون موقف والدتي من هذا الأمر؟

عند العشاء، اجتمع الجميع على الطاولة، ما عدا أمي التي لا تزال تهرول بين المطبخ وغرفة المعيشة لإحضار ما ينقص.

قال أبي:

ـيا فاطمة، يكفي ما أحضرته، هيا تعالي واجلسي. لدي ما أخبركم به.

استغرب كل الموجودين، سواي طبعًا. أنا فقط انتظرت الصيغة التي سيصيغ بها الخبر.

أمي:

ـ خيرًا، ماذا هناك؟

ـاجلسي وسَنتكلم.

جلست والدتي بينما حدقت به ثمانية أعين بترقب لما سيتَفوّه به، تنفّس الصعداء، ثمّ قال:

ـمنذ أسبوع، قررت قسرًا تغيير مكان عملي، فالمصنعُ الصّغير الذي نعمل به سيغلق أبوابه لقلة العمّال والمكاسب؛ لذا دلّنا المدير على مصنع في الطارف، سيكلّم مديره ويحوّلُنا إليه إن شاء الله.

تغيرت ملامح الجميع سواي مجددًا. أمي باقتضاب:

ـماذا؟ الطارف؟ إذًا ستترك البيت؟

أبي مجيبًا:

ـلا بدّ لي، فإطعامكُم مسؤوليَّتي، وسنتشرّد إن أصبحت بلا عمل، كما أنني سآتي مرّة أو اثنتين كلّ شهر، وأحمد، تبارك الله، أصبح رجلاً، لذا لا خوف لي عليكم من شيء.

ابتسم أحمد بخفاء ثم قال:

ـلا بأس يا أبي، إن كان هذا ما تريده، يمكنك الاعتماد عليّ، لن يصيبهم ضير.

منى:

ـلِمَ لا تجد عملاً آخر غير هذا؟

ـوهل أغيِّر حرفتي بعد أن شارفت على الخمسين يا ابنتي؟ إنه المجال الوحيد الذي لا أجد صعوبات فيه.

أبدت أمي خليطًا من ملامح تنم عن انزعاج واستسلام كمن لا حيلة له سوى التسليم. تنهدت بعمق ثم قالت:

ـحسنًا، أنت الأدْرى في هذا الأمر، علّ وعسى أن تتيسر أمورك كلها.

ردّ أبي:

ـآمين.

طالعني أحمد بنظرات ارتياب ثم قال:

ـلِمَ لا تتفوّهين؟ دارين، ألا تعلّقين بشيء؟

ـأنت أدْرى يا أبي، رغم أننا سنشتاق إليك كثيرًا، فأنت لم تغادرنا يومًا.

قلتها محاولة أن أحارب شلال عينيّ كي لا يبدو ضعفي، لكن عبثًا، لتنهمر المياه من مقلتي بصمت، لم أكن لأقبل لو استشارني، أنا حتمًا.

نهض إليّ ثم حوّطني بذراعيه محاولًا تلطيف الجو بضحكته على موقفي:

ـ لا تقلقي يا ابنتي، سأرسل إليكِ كلّ ما تريدينه من هناك، الكتب أرخص سعرًا، سأغرقكِ بصناديق منها.

ضحكت رغمًا عنّي بينما ابتسم الآخرون، ربّما رحيله فكرة جيدة في النهاية.

عاد إلى مكانه ثم قال:

ـسأغادر بعد أسبوع من قبول طلبي، لذا سأباشر بالتجهيزات غدًا.

رحل أبي بالفعل بعد أسبوعين، تحديدا من يوم تقديمه لأوراقه. كان قد استغلّهما في تنظيم أموره، و اقتناء حاجياته، وجمع المال الكافي لإقامته هناك، متوعّدًا إيَّانا بزيارة منتظمة كل شهر تقريبًا. عمَّ البيت هدوء كئيب ليلة رحيله بعد وداعٍ انهمرت فيه دموعنا جميعًا عند محطة الحافلة. كانت زيارته الأولى لنا بعد قرابة الشهر، مكث فيها أسبوعًا كاملًا، حدَّثناه فيه عن أمورنا وألفتنا لغيابه، ففي نهاية المطاف، يبدو أن الوقت صديق وفيّ للألفة، لأنّ ما لم نعهده من قبل يبدو غريبًا ويعسر علينا تقبّله في البدايات، لكن الوقت يلينّ الصَّخر، لذا نصل إلى النّهايات بقبول تام وصدر رحب، لا خيار لنا فيه في غالب الأحيان. حكينا له عن كل جديد طرأ في البلدة، بينما شرع هو في وصف المدينة التي يقيم بها بإعجاب بالغ، ممَّا جعل الجميع يطالبه

بالذَّهاب معه يومًا ما إليها. كانت زياراته منتظمة بعد ذلك كما وعد، لا يتأخر يومًا إضافيًّا عن موعد قدومه. بعدها أغرق كلّ منّا نفسه في روتين جديد كما هو الحال دومًا.

بالنّسبة لي، كنت قد استعدت عادتي في التردد إلى مكتبة المدينة باستمرار، ما عدا فترة الامتحانات الفصليّة المرْهقة. أغادر المدرجات عند الثانية ظهراً في كلّ يوم، متوجِّهة نحو رفوفها العالية، أتناول كمًّا هائلًا من كتب التَّاريخ التي أتصفَّحها بسرعة لأشبع فضولًا متمرّدًا، ثمّ أرجع وأضعها بانتظام في أماكنها المعهودة لاختيار مجموعة أخرى من روايات الفانتازيا المغرية. أغوص بها هربا من شارع يزدحم بعقول فارغة من الأحلام تمامًا، تملؤها السّياسة وتشغلها أسعار المواد الغذائيّة فقط، لا وقت لديها لأمر آخر. كما أنّني اكتسبت صديقًا جديدًا، وجدته مرّة في حيرة من أمره بين كومة من مؤلفات أدهم شرقاوي، يتفحص عناوين الكتب ويقلب الصّفحات بعينين لم يتضح لونهما جيدا خلف النظارات الطبية. يدعى "أيهم"، شخص أقل صفة يمكنني إطلاقها عليه هي "متوقع"، فهو كان من ذاك الصنف الانطوائي قليل الكلام كثير التفكير. لكن في الغالب، تصرفاته وما يتفوه به متوقعة جداً. ملامحه هادئة بشكل لا أدري إن كانت مريحة أم مريبة.

رتيب الثياب، نظيف، تشكل الفوضى لديه صداعاً. شدَّ انتباهي كونه يتقاسم معي حب نفس الروائي، فكثيراً ما وقعت أيدينا على اختيار نفس الكتاب، ليتنازل هو عنه لي بتصرف رجل محترم، فابتعد به شاكرة. أتذكر أنني ساعدته في قراره لاختيار رواية ما ليأخذها معه، تناقشنا كثيرا حتى وقع الاختيار على رواية (في قلبي أنثى عبرية) لخولة حمدي، التي لم يكن قد قرأها من قبل. بعدها تقابلنا كثيرا، وصِرنا نتناقش في أحداث ذلك الكتاب وننتقد طريقة السرد في ذاك، حتى صارت علاقتنا صَداقة كُتبيّة تنتهي خارج جدران تلك المكتبة المتداعية.

التّغيّر المفاجئ!

بعد صباح إثنينٍ مرهق، قررتُ الانتهاء في منتصف اليوم والاكتفاء بمُحاضرتين طويلتين، إحداهما كانت عن تاريخ بريطانيا العظمى، والتوجه إلى البيت بعد أن سيطر الإغماء على أعصابي. في طريقي إلى محطة الحافلات، علت نغمة رنين هاتفي، مفصحة عن رقم والدتي على الشاشة. ضغطت زرّ الإجابة، ليأتيني الصوت من الجهة الأخرى مرتعشًا بعض الشيء، بدا وكأنّها قلقة. سألتني عن مكاني وعن ما إذا كنت قد رأيت أحمد أو التقيته بعدما لم يُجب على اتصالاتها العديدة، مما أقلقها بشدة. أخبرتها بأنني لمحته يقطع الشارع رفقة أصدقائه، أظنهم يقصدون النادي المقابل للجامعة. طمأنتها بأنّي أعلم مكانه، وحاولت تهدئة أعصابها مقدمةً عدة أعذار لهاتفه الغائب عن الوعي، مفترضة أن شحنه قد نفد أو أنه على الوضع الصامت.

بعد أن أغلقت الخط، صعدت درج الحافلة وفتشت عن مكان أرتاح فيه من تعب الوقوف، وربما سأغفو خلال دقائق هذه الرحلة القصيرة. عند وصولي إلى البيت، لم يختفِ قلق والدتي، بل تضاعف مرتين، حين تأخر والدي عن زيارته المعهودة. فالبارحَة كان من المفترض أن يصل، لكنه لم يفعل، افترضنا أنه تأخر تأخّرًا عاديًا وسيكون هنا بحلول الصباح. لكن اليوم أيضًا لم يأتِ، حاولنا الاتصال به، غير أن هاتفه استمر بالرنين دون أن يجيب أحد. قضينا مساء ذلك اليوم قلقين، تنتابنا شكوك نرجو أن تبقى

مجرد شكوك. ماذا إذا حلّ به شيء هناك خلال عمله؟ لكن لو حدث ذلك لاتّصل رئيسه ليُعلم عائلته. لذا، استبعدنا الأفكار السلبية وركزنا على الوقائع، وفضلنا النوم ثم الاستفسار عن حالته غدًا من عائلة أحد أصدقائه هناك.

صباح اليوم التالي، استيقظنا على رنين هاتف أحمد. كان أبي المتصل، تنفّسنا جميعًا الصعداء قبل أن يجيبه، وحمدنا الله كثيرًا على أن مكروهًا لم يصبه. كان قد أخبره بأنّه خرج مع أصدقائه الجدد في رحلة تخييم إلى غابة ما لا تصل إليها شبكة الهاتف، لذا فضّل ترك هاتفه في غرفة إقامته. اعتذر عن عدم إعلامنا بالأمر، وأخبرنا بأنه يحزم حقائبه ليأتي بعد غد. زالت مخاوف الجميع، ومن بينهم أمي، التي باشرت بعدها بتحضير أصناف الطعام التي يحبها أبي.

في يوم قدومه، كنا قد اشتقنا إليه كعادتنا، لذا ذهبنا جميعًا، ما عدا أمي، لاستقباله في المحطة. عند نزوله، لاحظت كم تغيّر شكله عن آخر مرة رأيته فيها؛ فقد قصّ شعره بشكل جميل، وكذلك شذّب لحيته كثيرًا، وتبدو عليه السعادة والنشاط.

بعد وصولنا إلى البيت، لقينا استقبالًا حارًا من والدتي، التي سحبته مباشرة نحو المطبخ، مقررةً أن بطنه يقرصه الجوع. دون أن ينبس بكلمة، تبعها ضاحكًا، بينما جلست أنا أفتش الحقائب عن هدايانا المعتادة في كل مرة يأتي فيها. كان قد أحضر بالفعل الكتاب الذي أوصيته عليه، بينما طارت منى تغني

وتشكره على ثوبها الجديد. أمّا أحمد فقد حصل على مجموعة جديدة من اللوحات والقطع الأثرية من أحد الأسواق القديمة هناك. حبُّ أحمد للتاريخ والأشياء القديمة حبّ طاهر، تكاد لا تجده عند أغلب شباب هذا الجيل.

كان قد أخبرنا بأنّه سيقضي أسبوعين هذه المرة على غير عادته، خبر كهذا كان كفيلاً بابتسام ثمانية أعين بشدة. لا أتذكّر أننا قضينا أيامًا أجمل من تلك الأربعة عشر يومًا من قبل. فقد عمّ البيت ضحكٌ متواصل كل ليلة على نكات كان أغلب من يلقيها أبي، وتنوّعت أصناف الطعام التي أبدعت بها والدتي، في الأيام التي لا نتناول فيها طعامنا خارجًا في مطاعم المدينة، رفّه عنّا كثيرًا بالهدايا والتسوق المستمر، لدرجة تمنينا فيها جميعًا ألا تنقضي تلك الأيام أبدًا.

لكن النفاد قدر كل الأمور، انقضت وحان وقت الرحيل والوداع الذي لا يرغب به أحد. كنّا قد نسينا ألفة الغياب، وسيتوجّب علينا الاعتياد من جديد بمرارة، لكنّه وعدنا بتكرارها كلما سنحت الفرصة. كانت تلك آخر كلماته العادية تمامًا.

فبعد ذهابه، تغيّرت أمور لم نفهمها، لم يعد يجيب على الاتصالات إلا نادرًا، وإذا ما أجاب، يتحدث بجفاء واضح لا يستطيع أحد تأويله، وكأن شخصًا مسلحًا يضع مسدسًا بمؤخرة رأسه ويجبره على الحديث. مللنا من أسئلتنا المتواصلة: هل حدث شيء؟ لماذا أنت منزعج يا أبي؟ أهو عملك أم نحن السبب؟ أخبرنا، ماذا هناك؟ إلا أنّ إجابته كانت واحدة على كلّ تلك الأسئلة: لم يحدث شيء أبدًا، أنا فقط مللت هذا المكان.

لم يكن ذلك عذرًا مقنعًا بالنسبة لي؛ فأنا أعرف أبي حق المعرفة. كان يقضي ساعات معي على الهاتف، نضحك ونتحدث في كل شيء. على الأقل، كان كلامه معبّرًا؛ فالهاتف كان الشيء الوحيد الذي يخفف وحشة البعد. أمّا الآن، فلا علم لدي لماذا اتسعت تلك الفجوة بشدة بيننا أو متى ظهرت. كان أحمد قد حصل على رقم هاتف صديقه الذي يقيم معه من أحد معارفه، لذا اتصل به وسأله عنه، فأجاب أنّ كلّ شيء على ما يرام ولم يحدث شيء جديد. زاد هذا من استغرابنا؛ فهو صار لا يتصل أبدًا، إلّا إذا بادرنا نحن وبعد مئة اتصال يجيب ببرود غريب.

صارت تلك الحادثة محور نقاش كل ليلة في بيتنا، والقلق صار جليًّا يرافق ملامح والدتي، بينما استمر هو على حاله. فقررنا نحن عدم الاتصال به حتى يحين موعد قدومه لنفهم منه سبب تغيّره وبروده عبر الهاتف. بالفعل جاء موعد قدومه، لكن هذه المرة لا تشبه سابقاتها؛ كان التوتر يشحذ الأجواء بيننا جميعًا بعد أن اتصل وأخبرنا بوصوله. لم يرد أي منا استقباله في المحطة كعادتنا سوى أحمد، فلا أحد يتوقع ردّة فعله، لذا فضّلنا نحن الانتظار في البيت.

بعد ساعتين ونصف من مغادرة أخي، طرق باب البيت. فتحت الباب متوقعةً أحمد وأبي خلفه. بالفعل كانا هما؛ أحدهما قد ارتسم تعب الطريق على ملامحه بوضوح، والآخر ملامحه لا تملك تفسيرًا. سلمت عليه، فوجدته بالكاد

يرد السلام دون عناق، وأعاد الكرة مع منى وأمي. رفعت حاجبي الأيسر في استغراب، ثمّ تراجعت خطوتين لأدخل حقائبه، مفترضةً أن التعب هو المتسبب في ردّة فعله غير الاعتيادية، ومؤكدةً لنفسي أنه تغيّر لا محال.

في الأيام القليلة التي قضاها في البيت، لم يكن على طبيعته بتاتًا؛ صار لا يحبُّ أطعمة، ويطلب أخرى لم نشاهده يأكلها يومًا. قلّ كلامه حدّ الندرة، بينما ازدادت الساعات التي يقضيها ينظر إلى شاشة هاتفه بصمت، ولا يبتسم إلا معها. صار يبالغ في ردّة فعله حدّ العدوانية عند حدوث أمر يزعجه، مما زاد الأمر غرابة؛ فهو لم يسبق له أن قسى على أحدنا من قبل. الجميع كان في حيرة من أمره، خصوصًا بعد أن توقفنا عن سؤاله عن السبب، فلا يعقل أن يتغيّر الإنسان بشكل جذري خلال شهر.

أصبح الجميع غير مرتاح بوجوده، بعدما تأكّدنا بأنّه ليس على طبيعته، وأن أشياء كثيرة تغيّرت فيه. افترض أحمد أنه تأقلم مع المنطقة التي يعيش فيها، وهذا سبب تغيّره، بينما قالت منى إنّه يعاني من مرض ما ولا يريد إخبارنا. أمّا أمي، فاكتفت بالقلق المعهود. أمّا بالنسبة لي، فقطعت عهدًا على نفسي أن أكتشف السبب مهما كلّفني الأمر.

ليلتها فكرت كثيرًا، وفرشت الفرضيات والدلائل في رأسي، علّي ألتقط شيئًا يدلُّني على رأس الخيط. قلّبت وقلّبت حتى وقعت على الشيء الأمثل لبدء البحث منه: هاتفه النقال!. بما أنّه يقضي ساعات عليه، فلا بدَّ من وجود

شيء ما به. لذا قررت أن أفتشه، رغم أنَّ هذا أمر غير أخلاقي، إلَّا أنَّني سأجنُّ لو لم أفعل.

رسمت خطة دقيقة في رأسي لا خطأ فيها؛ فأيّ خطأ سيؤدّي إلى عواقب وخيمة. ما صعّب عليّ أخذ الهاتف هو التصاقه المستمر به؛ لا يتركه إلّا عند النوم، ويستحيل عليّ اقتحام غرفة نومه. لذا فكرت في أخذه دون سرقته، سأطلبه منه بكل براءة، فغالبًا ما كان يتركه بيدي سابقًا. لكنني وضعت احتماليَّة رفضه في الحسبان، لذا استعنت بعذر قوي يجعله يوافق لا محالة، حيث تذرّعت باستخدام تطبيق اليوتيوب بعدما نفدت منّي الإنترنت، وكنت بحاجة للبحث عن درس ضروري يجب تقديمه غدًا. فضّلت انتظار المساء وطلب الهاتف، لأنّ خلوده إلى النوم سيمنحني وقتًا أطول للبحث عمّا أشاء. وبالفعل، بعد العشاء حزمتُ أمري واتَّجهتُ نحوه في غرفة المعيشة، وبصوت حزين يملؤه الزّيف ناديته:

ـ أبي!

أجابني بهمهمة دون أن يرفع نظره إليّ:

ـ هل لي بطلبٍ صغير؟

ـ ماذا؟

ـ هل لي أن أستعير هاتفك قليلًا؟ أريد البحث عن درس يجب أن أقدِّمه غدًا كفرض، وقد نفد الإنترنت في هاتفي. أرجوك، سأرجعه بعد ثوانٍ، الأمر مهمٌّ جدًا.

نظر إليّ مطولًا، متحققًا مما إذا كنت أكذب أم أصدق، وللحظة، ظننت أنّه سيرفض، لكنّه لم يفعل:

ـ حسنًا، خذيه، لكن دقائق فقط، ولا تقلّبي شيئًا آخر، وإلّا غضبتُ جدًا.

ـ أعدك، الدرس فقط.

أخذته بسرعة وركضت نحو غرفتي وأغلقت الباب بإحكام، خصوصًا أنّ منى نامت عند خالتي. آسفة يا أبي، أحيانًا نكذب لأغراض نبيلة ربّما. فتحته لأجد العديد من تطبيقات التواصل الاجتماعي، أكثر مما أملك أنا حتى. تنفست الصعداء، ثم ضغطت على صندوق "ماسنجر"، أول ما خطر ببالي. وجدت العديد من الرسائل، وبدأت بقراءة أسماء أصحابها لأقرر ما إذا كنت سأفتحها أم لا، وضميري لا يكفّ عن شتمي.

بعدها، تحوّل تأنيب الضمير إلى صدمة كهربائية بشحنة مليون فولت، عندما قرأتُ اسم صاحب الرّسالة الرابعة. كان كُنيةً وليس اسمًا، كُنيةٌ وضعها أبي لذلك الشخص: "عزيزتي" بخط أسود عريض مع قلب أحمر. تجمدت أصابعي قبل فتحها من هول الصدمة. اندفع عقلي يردد جملة واحدة يرجمني بها بقسوة: "أمي لا تمتلك حسابًا على فيسبوك!". وجملة أخرى بالكاد أسمعها بسبب صوت دقات قلبي الصاخبة، أو ربما فضّلت عدم سماعها: "إنه يخونها!".

كان وقعها ثقيلًا يضاهي وزن فيلين معًا. يخونها! هل أبي يخون أمي؟ أيعقل أن يحدث أمر كهذا؟ ربما لم أستوعب ما رأيته أمامي. أفقت من غفوتي

بعد أن استمررت في النظر إلى الشاشة حتى انطفأت. أعدت فتحه وقررت الضغط على صندوق الرسائل مع "عزيزتي" هذه المرة. ضغطت عليه، فتلوّنت حدقتاي بالقلوب الحمراء المتصاعدة مع كل رسالة:

ـ أين أنت؟ لماذا هذا التأخر؟

ـ آسف، عزيزتي، كنت أتناول عشائي.

ـ تستمتع هناك، أليس كذلك؟ إلى متى سنبقى هكذا؟

ـ ليس مطوّلًا، لا تقلقي يا عيوني. سيكون كلّ شيء على ما يرام.

ـ حسنًا، أنا أثق بك على أي حال، لكن أسرع، لقد اشتقت إليك كثيرًا

ـ وأنا كذلك.

قررت الاكتفاء بما قرأت، فهو كفيل بتثبيت الفكرة في رأسي السميك الذي ظلّ ينكر حتى اللحظة الأخيرة. نعم، إنه يخونها. لا أعلم إن كانت علاقة هاتفية أم واقعية، وهل هي من بلد آخر أم من مدينتنا، منذ متى أو هل هي السبب في تغيّره المفاجئ؟ لكنني على ثقة لا يهدمها شيء بأنها خيانة. بلا ذرة استحياء أو أدنى احترام لثلاثة أولاد اشتدّ عودهم وزوجة أفنت رقتها في المطبخ لإرضاء بطن غدّار خائن.

أغلقت هاتفه بغضب العالم أجمع بعدما قررت أن ألتزم الصمت حتى يزول الغضب لأقرر ما العمل، حيث لم أستطع التفكير في شيء آخر. رميت الهاتف على الأريكة بعد أن نام الجميع، وعدت إلى غرفتي. هجرني النوم

بقسوة، وقضيت ليلة شبيهة بتلك التي نمت فيها وخيبة الأمل تعتصرني. سالت دموع الخزي والعار من جانبي وجهي لتسقي أرضًا ناعمة لا ذنب لها فيما يحدث، لكنها أوّل المتضررين وآخرهم.

لم أقدر يومًا على استيعاب طبيعة البشر السيئة؛ هل يُخلقون أشرارًا أم يكتسبون الشر؟ أؤمن بأن الله لا يخلق شيئًا سيّئًا، لذا حتمًا هم يتحولون بعد الولادة. كانت تلك المرة الثانية التي تحطمني فيها يا أبي، وأظنها آخر المرات، لأن كل ما سيأتي بعدها سيواجه مناعتي ضد الكسر. كلّ تصرّفٍ سيّئٍ يبدر منك سيصبح متوقّعًا! على الأقل وجدتُ إجابة لأسئلتي، لهذا كنتَ ملتصقًا بهاتفك طيلة الأيام الماضية، تبتسم لرسائلها الرّخيصة برخصٍ متبادل. لهذا صرتَ قليل النظر إلى أمي ونادر الكلام معنا؛ لأنك مشغول بالإنجاز الجديد الذي ستحصد ثماره عن قريب. عرفتُ الآن سبب إقلاعك عن بعض الأطعمة، لربما هي لا تحبها، فعاندتها كمراهق أربعيني شارف على التقاعد. وبالتأكيد، هي أمْلت عليك أسماء أطباقها، فأمليتها بدورك على والدتي المسكينة، التي سارعت بتحضيرها لتلتقط أنت الصور وترسلها إلى عزيزتك العاهرة.

لم أعلم أنّ بنيتك ضعيفة هكذا يا أبي. اتضح أنك لا تشبهني، ولا أحد منا يشبهك. نحن نمتلك مقدّساتنا ومبادئنا، بينما مبادئك لا تبدو عليها الصلابة. أؤمن بأن لكل فعلٍ ردّ فعل، فما هو الفعل الذي دفعك لأن تصبح شخصًا

آخر؟ أخبرني، ما النقص الذي شخّصته في زوجتك حتى بحثت عنه في العاهرات؟ تذكّرت فجأة رسالتها التي قالت فيها: "إلى متى سنظل هكذا؟" وطمأنتك لها بقولك: "ليس مطوّلًا!". فكّرتُ مليًا فيما كنت تقصده، هل ستتركنا لأجلها؟ أيعقل أن يكون عقلك بهذا الحجم؟ هل ستهدم بيتًا بنيته لسنوات من أجل عاهرة ما؟

في صباح اليوم التالي، أصبح لقاء عينيّ بعينيك المستحيل الثامن. تعمدتُ تفادي النظر إليهما، كي لا تقرأ أنت أنواع الشتم التي امتلأت بها حدقتاي من أجلك. حاولتُ إحكام إغلاق فمي تجنبًا لكارثة عائلية، لأنني بعد تفكير مطوّل قررتُ عدم إخبار أمي باكتشافي ليلة أمس. فضّلت تركك تتمادى ومراقبتك لمعرفة إلى أي مدى ستصل، وعند أي نقطة ستتوقف. وجدتُ أن هذا حلٌّ أفضل بمراحل من فضحك بين أولادك وزوجتك، فرغم كلّ شيء، أنت أب وزوج يتمّ احترامه تحت سقف هذا المنزل. ولم يرد جانبٌ منّي استئصال ذلك الاحترام من أعينهم المخدوعة بهذا الشكل المريع، كما استُئصل احترامي لك.

رغم دهشتي التي استمرت لأيام، محاوِلةً استيعاب الأمر وتقبّل فكرة أنك خائن بكل ذرّة فيك، وبأنك لست الأب الذي عهدته يومًا، إلا أن الاحترام تلاشى في النهاية. لم أعلم إن كنتَ قد تغيرت أم أنني لم أعرفك جيدًا، رغم الثلاثة والعشرين عامًا التي عشتها تحت ظلّك الخادع. لم أعلم أنّ نصيحة أمي

"لا تثقي بأحد" تنطبق حتى على أهلنا؛ لذا فضّلت الدعاء للقادر، لمن يقدر على انتشال الأفكار الشيطانية وإعادة تثبيت عقلك في مكانه المناسب، بدل إشعال فتيل حرب نجهل أنا وأنت نهايتها، عسى أن تتركها وتعترف بأن هذا خطأ لن يتكرر مجددًا، خطأ ساهم الشيطان في إتمامه بشكل كبير.

كان موعد رحيله بعد ثلاثة أيام من اكتشافي لعزيزته. اثنتان وسبعون ساعة قضيتها بصعوبة، تجنبته فيها قدر المستطاع، حيث لم أستطع معانقته حتى عند توديعه؛ فقد تحججت بعملٍ ما يتطلّب مغادرتي المنزل قبل ساعتين من موعد خروجه. لم أُثِر شكوك أحد، فالإغلاق على الأشياء بداخلي أصبح موهبتي الجديدة، لكن شرودي المستمر كاد يفضحني. كم تمنيت لو يعلمون دون حديثي أنا، لربما يجد أحدهم حلاً. تمنيت لو يشاركني أحد التفكير المفرط في هذا الأمر. لعنتُ نفسي مئات المرات عند كل كلمة يُنطق بها اسم أبي، وعند كل مدح يشمله هو. تمنيت لو صرخت بأعلى صوتي: "أبوكم خائن!"

عقلي لم يكف عن التفكير في أمي، ظلّ يصوّر مشهد يوم اكتشافها للأمر؛ لأن حبل الاستغباء والتغطية قصير أيضًا. سيُغمى عليها للأبد ـلا قدّر اللهـ أمي كائن رقيق لا يحتمل مثل هذه الأمور. شعرت بحزنٍ جارف من أجلها؛ فالخيانة موجعة بكل طرقها، تجعلك تحتقر نفسك كحشرة. تظن أنك غير كافٍ، ومجرد تمامًا من أي ميزة جميلة، مما تسبب في نفور الشخص منك. لكن الحقيقة غير ذلك؛ الحقيقة أن ذلك الشخص نذل بكل ما تحمله الكلمة

من معنى، داخله مقرف أكثر بمراحل من خارجه. ولم يدرس عن الوفاء في مدرسته.

بعد أن فاض الكأس قلقًا وتعبًا، وبعد ليالٍ احتلها أرق حقير وأمسيات خالية من الراحة، وأكوام من التخيلات والتوقعات التي لا أتمنى حدوثها، قررت استشارة صديقة لي علّها تفيدني بنصيحة. لطالما ناديتها بأمي الثانية. رغم أنني أكبرها باثني عشر شهرًا، إلا أنها تكبرني بأربع وعشرين عقلًا. شخصيتها تحمل مزيجًا من الحكمة والرقة مع رشة من اللطافة المفرطة. أعتبرها صندوقًا يحوي جميع أسراري ومشاعري التافهة والمهمة، ويغلق عليها بإحكام شديد. هي تتحول إلى ملجأ دافئ لنا عند الحاجة إليها، مما يجعلني أناديها عند الشعور بالضيق: "آية".

بحثت عن رقمها كمدمن أضاع إبرته المخدرة، ثم ضغطت على الأزرار بعشوائية حتى سمعت الرنين المعتاد عند انتظار وصول الشخص على الجهة الأخرى إلى هاتفه.

_آية، أهلاً! كيف حالك؟ عساكِ بخير!

_دارين، هذه أنتِ! بخير عزيزتي، وأنتِ؟ كيف حالك؟

_أنا لست بخير، أحتاج أن نلتقي بأسرع وقت، أريد رأيك في أمر ما. هل نلتقي مساء هذا اليوم؟

_ما الذي حدث؟ لا تجعليني أقلق، أخبريني!

ـليس على الهاتف. إنَّه أمر يخصّني، لا تقلقي، لنلتقِ أوَّلًا، ثمَّ أحدِّثكِ عن موضوعي.

ـحسنًا، في المقهى المعتاد بعد ساعتين، هل يناسبك هذا؟

ـحسنًا، رائع. أراكِ بعد ساعتين.

أغلقت السماعة. قبل الخروج، أعددتُ شاي نعناع علّه يهدئ أعصابي كما هو شائع، لكنه لم يُفد، أظن أن النعناع خادع أيضًا. خرجت متجهة نحو المقهى، وكلي اضطراب. عند وصولي، لمحت آية تجلس على طاولة قرب النافذة، فغيّرت مساري نحوها ولوّحت بيدي من بعيد.

ـعزيزتي، أهلاً بك! كيف حالك؟ قالتها وهي تسلّم عليّ بحرارة.

ـلستُ بخير أبدًا. أنا لست بخير.

ـاجلسي وابدئي بإخباري، ما الأمر؟ هيا.

بعد جلوسنا، حدّقت في عينيها لمدة دقيقة، أو هكذا شعرت. ثم استجمعت شجاعتي وقلت:

"أبي يخون أمي يا آية."

اتسعت حدقتا عينيها بشكل كبير، وفتحت فمها بدهشة شديدة قبل أن تغطيه بكفها.

ـدارين، ماذا تقولين؟! كيف هذا؟ متى ولماذا؟ إنه أبوكِ! أتدركين ما تقولين؟

ـصدقيني يا آية، صدمتي كانت أكبر، عرفتُ بالأمر الأسبوع الماضي، منذ تلك الليلة والأرق يصاحبني كظلّي، والتَّفكير المستمرّ أرهق أعصابي.

حكيت لها عن كيفيَّة علمي بالأمر بالتَّفصيل وتغيّره وكلّ شيء. قضت آية قرابة خمس دقائق تحاول استيعاب الأمر بعدم تصديق، ثم فكّرت قليلًا وقالت:

ـاسمعيني يا دارين، في البداية، فلنتمنى أنها علاقة هاتفية لا أكثر، لا أريد أن أزيد الأمر عليكِ، لكن سيتحول قلقك إلى هلع إذا كانت علاقته بها على أرض الواقع، ستكون تلك كارثة.

ـهذا تمامًا ما يشغل بالي، ماذا لو كان يقضي وقته معها عند الانتهاء من عمله؟

تُرى، هل تعلم بأمر زواجه؟

أظنها تعلم، فقد قرأت رسالة لها تخبره فيها أنها لا تريد البقاء على هذا الوضع. أظنها تقصد زواجه. لا أستبعد أنه وعدها بالطلاق قريبًا.

ـلا سمح الله! لا تقولي هذا يا دارين. لا أظن أن أباك صغير العقل إلى هذه الدرجة.

ـلو كان كبير العقل لما فعلها من الأساس، لذا فموضوع الطلاق متوقع الحدوث أيضًا.

ـأرجوكِ، ما الذي يتوجب عليّ فعله؟ لا أريد لعائلتي أن تتفكك. ولا أرضى الحزن لوالدتي ولو بذرة. أنا حائرة في أمري. هل أكلّمه أم أخبر منى وأحمد ونعاتبه جميعًا؟ ما الأمر الملائم في وضع مشين كهذا؟

ـاسمعيني يا صديقتي، من الأفضل ألا تخبري أحدًا من إخوتك، وتعاتبيه بنفسك.تكلمي معه على انفراد عندما يأتي في المرة القادمة، وأخبريه أنك سمعته يكلمها عبر الهاتف. حاولي تحسيسه بتأنيب الضمير، وأخبريه أنّه أمر خاطئ ومشين، وعدّدي له عواقب علم أهل البلدة بفعلته. سيخيفه هذا الأمر وسيتراجع لا محالة. في النهاية، هي مجرد نزوة عابرة، وأنتم عائلته التي تعب من أجلها. لن يخاطر بكم وبسمعته.

ـأهذا ما تظنين؟ لا أعلم.

ـحتمًا، هذا هو الأمر المناسب. أمّكِ لن تستطيع احتمال الأمر، ومن المرجح أنها لن تسامحه أبدًا. كذلك أحمد ومنى سيجرحان كثيرًا منه.

صمتت قليلاً ونظرت إلى الأسفل، ثم أمسكت يدي بعطف وقالت:

ـآسفة يا جميلتي لأنك اضطررتِ لمعاناة هذا الأمر لوحدك. البشر سيئون يا دارين، سيئون بدرجات متفاوتة. لكنك ستجدين الحل، وسيمضي هذا الأمر كما تمضي الرياح. لا تقلقي نفسك أكثر.

احتضنتها بعد كلامها، مقررة اعتماد نصيحتها وتطبيقها، ثم شكرتها بشدة وافترقنا.

مساء ذلك اليوم، قررت استغلال هدوء المنزل في قراءة رواية كنت قد اقتنيتها قبل أسابيع بعنوان "أحببتك أكثر مما ينبغي" من تأليف أثير عبد الله النشمي. اتكأت على كرسيّ وبدأت القراءة. بعد صفحتين ونصف، رن هاتفي معلناً وصول رسالة نصية. في البداية قررت عدم الاهتمام بها، لكنني عدلت عن قراري والتقطت الهاتف. فتحت الرسالة لأجدها من رقم غير مسجل، تقول:

"كيف حالك يا دارين؟"

أعدت قراءة الرقم مرتين، لكن لم أجد له أثراً لا في ذاكرتي ولا في هاتفي. قررت الرد لأعرف من صاحب الرسالة، علّها تكون إحدى صديقاتي غيرت رقمها.

ـبخير، ولكن من معي؟ عذرًا لم أتعرف على رقمك.

أتاني الرد سريعًا:

" لا تقلقي، سنتعرّف."

ـلم أفهم!

ـلقد حصلت على رقمك من أبيك.

زاد استغرابي أضعافًا، ولم أفكّر سوى في شخص واحد:

ـ تلك العاهرة! أيمكن أن تكون هي؟ ما هذه الوقاحة؟

ـعفواً، من أنت أو أنتِ؟ ولماذا حصلتِ على رقمي من أبي؟ وضّح كلامك من فضلك.

ناديني سيرين، قريباً سنتعرف أكثر. أردت أن أكلمك لأوطد علاقتنا، أخبرني عبدو أنك أكثر تفهّماً وتفتّحاً من أختكِ الكبرى، لذا فضلت الحديث معكِ أنتِ.

جنّ جنوني وكدت أثقب الهاتف خلال الكتابة، أصبحت شرايين رأسي تنبض بقوة، وغضب عارم يجتاح صدري.

إذاً أنتِ تلك العاهرة التي يكلمها أبي المنخدع، أليس كذلك؟! أي نوع من البشر أنتِ؟ وأي وقاحة تعتمدينها حالياً؟ هل تكلمين ابنة عشيقك؟؟ هل تريدين إصابتي بالجنون؟

ـلا أبداً، لا سمح الله، لكن لم أفهم سبب انفعالك، فهذا أمر عادي جداً، كما أنّه ليس عشيقي كما تقولين، إنّه زوجي.

زوجكِ تقولين؟ إذاً، فلتذهبي أنتِ وهو إلى قعر الجحيم! إياكِ ومراسلتي مجدداً، أيتها الوقحة. فقليلات الأدب مثلك لا ينفع الحديث معهن. ولا تفرحي كثيراً، فأنتِ مؤقتة وغبية. وسنرى من سيضحك أخيراً.

ثم وضعتها في قائمة الحظر قبل أن أتلقى ردها الرخيص، وأنا أشتعل غضباً. أي وقاحة تلك؟ وأي نوع من البشر هي؟ ألا كرامة لديها؟

ألم تسمع يوماً بالمبادئ والأخلاق؟ صرت أفور غضبًا، أهرول في الغرفة ذهابًا وإيابًا، ثمّ أمسكت الهاتف مجدّدًا، وحزمت أمري بالاتّصال بالمسمّى "أبي". رنَّ الهاتف باستمرار دون أن أتلقى إجابة، كالعادة. جننت أكثر، ولعنت جدّه وفصله آلاف المرّات.

قرّرت إخبار أمي بالأمر لتنفجر البراكين، ولتنشقّ الأرض مرارًا. لست أهتم بعد الآن. اتَّجهت نحو غرفتها بسرعة، لأجدها تحيك شيئًا ما. تغيّرت نبرة صوتي فجأة، وانطفأت حمم الغضب دفعة واحدة. حدّقت بها، ثمّ سألتها:

ـأمي، ما الذي تحيكينه؟

ـآه! أفزعتِني يا ابنتي، اصنعي صوتًا قبل الدخول فجأة، ستوقفين قلبي يوماً!

ـلا سمح الله، لا تقولي هذا، أخبريني، ماذا تفعلين؟

سألتها، ثم تقدمت وجلست عند ركبتيها على الأرض كقط يريد تربيتا يطمئنه.

ـأحيّك كنزة صوفية لوالدكِ، فالبرد شديد في تلك الولاية ليلًا، ولا أريده أن يمرض.

وقع كلامها كوقع ماء مغلي على بلاستيك، فانتفض قلبي بألم شديد وانهمرت دموعي دفعة واحدة دون إذني. لاحظتني بسرعة:

ـدارين، ماذا بكِ عزيزتي؟ لماذا تبكين؟ هل اشتقتِ لوالدكِ؟

ـبلى، هو كذلك. أفتقده جدًّا.

ضحكت بخفة واحتضنتني قائلة:

ـلا تبكي، إنّه في بلدنا، لم يغادره، ههه... سيأتي بعد أسبوعين من الآن ويمكنك قضاء وقتك معه، رغم أنه لم يعد يحب الكلام كثيراً. أظنه اعتاد الهدوء لوحده.

آه يا أمي، كيف لي أن أبوح؟ كيف لي أن أرديكِ أرضاً بقولها؟ كيف سأقدر على طعنك وأنتِ مستيقظة؟ وهل بإمكاني سحق قلبك الرقيق بهذه الطريقة؟ أنتِ مرممة قلوبنا جميعًا.

من تحيكين له ثوبًا يدفئ صدره قد دعس على محتوى صدرك بقسوة نازي على سجين أمريكي. ضرب بعاطفتك ومشاعرك عرض الحائط. وقد غيّر اختياره الصحيح؛ عيونه لم تعد تبرق لرؤيتك، بل صارت تتوق لصورة شخص آخر. هم حتماً لم يتعلموا عن الوفاء يا أمي. مبادئهم تافهة وغير متينة. اتضح أن اختيارك كان أكثر الأخطاء فداحة. تبين أن البئر التي رميتِ بها مشاعرك، اهتمامك، سنوات شبابك، وقلبك الكريستالي، كانت بلا قاع فأضاعت جميع محتوياتها. لم تعرف كيف تحافظ عليها ولم تخبرك بعجزها عن ذلك؛ بل أضاعت كل شيء عمدًا.

لم أخبرها تلك الليلة، اكتفيت فقط بالبكاء في حضنها لسبب تجهله هي وأدركه أنا إدراكاً موجعًا، بكيت حتى نمت.

لقد تزوجت

. أفقتُ صباحًا على ظل جسد أحمد الضخم وهو يقف بالقرب من رأسي يناديني:

ـدارين، استيقظي، أبي سيصل اليوم!

قفزتُ من فراشي فور سماعي كلامه:

ـماذا! لماذا ومتى قال إنه سيأتي؟

ـلقد أخبرني البارحة، لكنني نسيت تمامًا أن أخبركم.

ـلكنه يعمل، ولن ينقضي الشّهر إلّا بعد أسبوعين، لماذا هو قادم؟

ـوالله لا أعلم، ربّما في إجازة ما، لست أدري! المهم، استيقظي، أمّي تريدك في عمل.

قال جملته ثم انصرف دون أن يحصل على رد مني، لأنني كنت تحت تأثير دهشتي واستغرابي الشديد. لم يرتح قلبي لمجيئه مطلقًا. فكّرت في جميع الاحتمالات التي قد تحدّث مع قدومه، لكن ما حدث فاق دهائي وسحق توقعاتي المسكينة كحشرة!

أخبر أحمد الجميع بعدم ضرورة ذهاب أحدنا لإقلاله من المحطة، على غير العادة. تعجبنا جميعاً، لكن نفذنا أمره بصمت. كعادتها، والدتي تهرول بين المطبخ وغرفة المعيشة لتحضير طعام الغداء له. منى كانت تتصفح هاتفها على كنبة في غرفة المعيشة، بينما كان أحمد يعدل مصباح الردهة الرئيسي.

أما أنا، فرغم جلوسي على كرسي عادي، كنت أشعر أنني أرتجف وأهتز ذهاباً وإياباً. أفكر في كيفية مواجهته بعد أن ينام الجميع، وردمه بأسئلتي الكثيرة، الواحد تلو الآخر. كنت أخطط لمواجهته بنظرة تهز كيانه عند إلقاء السلام عليّ، تجعله يشك في نفسه.

مرت الدقائق كالسنوات، توتر كبير يجتاحني وحدي تحت سقف هذا المنزل. بعد دهر طويل، سمعت طرقاً على باب المنزل. إنه هو! لقد وصل. لم أشأ فتح الباب، رغم أنني كنت الأقرب إليه. فضلت نداء أحمد ليفتحه، وابتعدت قليلاً عنه لمسافة لا بأس بها.

هل تم طعنك يوماً؟ هل عرفت ألم سحب السكين من مكان الطعنة؟ كان هذا شعوري حينها، وكأن شخصاً ما سحب سكيناً من صدري بعد دهر من الزمن. نعم، كان أبي من يقف على عتبة الباب. شعر أسود قد اجتاحه بياض ناصع دون إذن، أنف معقوف وابتسامة بالكاد ترى. كان أبي، لكنه لم يكن وحده! كان بجانبه شخص آخر: شعر أصفر لا يتعدى الرقبة طولاً، عيون ضيقة، وثياب لا تلائم هزالها الواضح. بدت في الثلاثين من عمرها. أنثى ثانية! بإمكاني القول إنني أعرف شعور والدتي تماماً بعد هذا المشهد، فقد تذوقت طعم الاستبدال من قبل.

حقائب عديدة صُفّت خلفها، تدل على طول مدة إقامتها. كان الجميع ينتظر توضيحاً وينظر بجدية إلى الرجل الواقف على باب بيتهم، عدا شخص واحد.

بعد صمت طال، نطقت والدتي باستغراب:

عبد الحميد، من ضيفتنا؟

تنحنح عبد الحميد وتقدم حاملاً الحقائب دون إجابة، مطالباً ضيفته بالدخول. بعد إغلاق الباب، طلب منا جميعاً الجلوس في الصالة. تقدم الجميع مستغربين، إلا أنا. جلسنا نراقبه تارة، وتارة ننظر إليها. لم يجلس كالبقية، بل وقف وأوقف ضيفته. حزم أمره وقال بنظرة لا تخلو من الجدية:

لقد تزوجت!

نعم، بهاته البساطة! بكل برود وفي قمة الحقارة. تزوج عليها سراً وكأنه يحضر البقالة من سوق العصر. أكان الاستبدال سهلاً إلى هذه الدرجة؟ تمنيت لو أنها مجرد نزوة عابرة ينساها بتغيير رقمه. وددت لو كنت أنا من ضحك أخيراً، لكن الواقع أنني جعلت من نفسي مصدر سخرية لها. لم تكن تختلق أمر الزواج؛ إذاً كان حقيقة لعينة. صرت ألعن نفسي مليار مرة في الثانية لعدم بوحي بالأمر يوم عرفت به. لربما كنت منعت مثل هذه الكارثة من الحدوث. هل كان هذا خطأي؟

بعد كلمته تلك، تصلبت وجوه الجميع، وعمّ الصمت لدقائق وهم يحاولون استيعاب ما تفوه به. ثبتت عيناي على أمي، أتأهب لردة فعلها. لكنها لم تجهش بالبكاء، بل انفجرت ضحكاً، تقهقه بصوت عالٍ زاد من توتر الجميع. هرعنا، أنا ومنى، نحاول تهدئتها بينما نلقي باللوم عليه بكلمات تنم عن ألم وصدمة.

خاطبته منى، وكلها غضب:
كيف تفعل أمراً كهذا؟ هل جننت؟ من يتزوج دون إخبار أهله!؟

أما أحمد، فقد اتقدت عيناه كراهية وحقدًا دون أن يتفوه بكلمة. رأيت نفس النظرة في عينيه يوم صفعها. شحذ أسنانه ثم قال:
إذن، هذا هو سبب تغيرك المفاجئ؟ عاهرة ما التقطتها من شوارع الطارف، أليس كذلك؟ أين رجولتك؟

اخرس، وإلا كسرت فكك! قالها عبد الحميد بحدة.
إنها زوجتي، سواء رضيتم أم لا، لن يغير كلامكم شيئاً. ستتقبلونها كما يتقبل ديننا التعدد، فهو حقي. لا يحق لأحد منكم أن يحكم عليّ أو يحاسبني. مفهوم للجميع؟ الآن سأترككم. اتفقوا فيما بينكم: من يتقبلها، فمرحباً، ومن لم يفعل، فليغادر المنزل أو يفعل ما يشاء.

قال كلامه ثم انصرف بها إلى غرفته. أكثر ما أثار حنقي هو وقوفها دون أن تنطق بكلمة، فقط تشاهد بصمت كأفعى المامبا السوداء. لم أنظر في وجهها، لكني شعرت بابتسامتها الساخرة عند كلامه لنا. دقائق أخرى وخرج، تتبعه هي، ثم غادرا المنزل دون أن ينطق أحد بكلمة.

عند ظهر ذلك اليوم، غادرنا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. غادر قلوبنا ومنطقة احترامنا وحبنا؛ فالداعس على القلوب لا مكان له بين المحبين، ولا نصيب له سوى الكره والحقد. تحت سقف غرفة المعيشة تلك، كان هناك أربعة أشخاص طُعنوا في قلوبهم بقسوة، يحملون آلاماً متفاوتة، رغم أن الطعنة كانت بسكين واحدة.

توقفت والدتي عن الضحك بعد دقائق وفضلت التحديق من النافذة في صمت مريب أقلقني عليها كثيراً. حاولت قدر المستطاع الحديث معها، إقناعها أنّه رجل لا يستحقها، وأنّه غير وفيّ، آملاً أن أخفف عنها وأحثها على الكلام، لكن دون جدوى. منى اندفعت بالبكاء بصوت عالٍ، مما زاد من هلعي. لطالما عبرت منى عن ألمها بالدموع الغزيرة؛ هي ووالدتي تتشابهان في الرقة. أما أحمد، فقد كسر بضعة مزهريات وقلب البيت رأساً على عقب في سنفونية من السخط والشتائم الموجهة لأبيه العريس، ثم غادر المنزل بعدها.

لم يجتاح قلبي شعور بالحيرة كما حدث تلك الليلة. لم يغادر القلق والهلع صدري لدقيقة. كيف أفعل وقلبي العزيز يتألم؟ والمتسبب هو قطعة قديمة. ظننت أنها ستكون آخر مرة تفعلها بنا يا أبي. اعتقدت، بغباء، أنك تقدم على أفعال تندم عليها لاحقًا حين تغضب. هل غضبت الآن أيضًا؟ لماذا تجبرني على كرهك بعد سنوات الحب والدلال التي اعتقدت أنها لن تنتهي؟ ما الجديد الذي طرأ على حياتك حتى اعتقدت أن إضافة فرد غريب لعائلتك

سيزيدك سعادة؟ من هي لتشارك أمي وتشاركنا نحن بك؟ ألم تقرأ يوماً أن عدوة المرأة هي امرأة ثانية؟ وأن أسرع طريقة لقتل امرأة هي امرأة أخرى؟ هل رضيت القتل لفاطمتك؟ أم أن مفاهيمك ومعتقداتك اختلطت وصرت لا تميز بين أولوياتك ورغباتك؟

أنا لا أعارض الشرع ولا الدين، لكن كان يجب عليك حساب كسر الخاطر أيضًا؛ فهو ليس مسموحاً في الإسلام. كيف تهدم خواطرنا بهذه الطريقة؟ بعد تلك الفاجعة، تغيرت أمور كثيرة. لم يعد شيء كما كان. بين ليلة وضحاها، أصبحت لدي زوجة أب! واضطررت قسراً إلى تقبل الأمر.

لم نتقبل أمي الوضع نهائيًّا. بعد أن عاد أبي إلى البيت مع زوجته ذلك المساء، تشاجرا بشدة. غضب هو، وبكت هي كثيرًا. حاول تغطية فعلته بآلاف الأعذار التي يعلم جميعنا أنها لا تمت للحقيقة بصلة، مجرد خزعبلات يؤمن بها هو. انتهت المشاجرة بجمع والدتي أغراضها ومغادرتها المنزل إلى بيت خالتي في ولاية أخرى. لم ترضَ أن تعيش تحت سقف واحد مع ضرة، وكذلك كنت لأفعل لو أن القدر وضعني مكانها. رحلت بعيداً عنه تحاول الالتئام منه، وحتماً تفكر في الطلاق. رافقتها أنا ومنى، بطبيعة الحال، بينما صار أحمد يبيت عند صديقه.

ظل الوضع هكذا قرابة شهر. لم يسأل عنا أبي، ولم تصلنا أخباره. لكن سرعان ما أنهكتنا الطريق إلى الجامعة؛ فقد كانت تبعد عن بيت خالتي

قرابة الساعتين بالحافلة. لذلك، قررنا، أنا ومنى، بعد ضغط كبير من والدتي، العودة إلى البيت حتى إشعار آخر. رغم كل شيء، دراستنا هي الأهم. كما أن البيت بيتنا نحن، لا هي.

عند عودتنا، وجدنا ديكور البيت قد تغير بشكل ملحوظ. غيرت الكثير في المطبخ والصالون. لم يعد الصالون كما كان. غرف نومنا كانت الوحيدة التي سلمت من بطشها. رحبت بنا بحفاوة عند وصولنا، وكأنها تستقبل إحدى صديقاتها القديمات.

لتتنعم برد فعلنا البارد وتجاهلنا التام لها ولكلماتها المزعجة، كنت قد عاهدت نفسي ألا أكلمها أبدًا. وكذلك منى. أما هو، فعند مجيئه في المساء، كنا في غرفتنا أنا ومنى. دلف إليها دون أن يطرق الباب. حدق بنا، وبوادر الفرحة تعتري ملامح وجهه الخائن. تنهد ثم قال:

_آه يا بناتي، البيت فارغ من دونكم. من الجيد أنكما عدتما. تفكير صائب.

قابلنا كلامه بتجاهل تام حد الوقاحة، لكنه يستحق. يستحق كل تجاهل وكل معاملة سيئة نعامله بها منذ اليوم. بعد أسبوعين، عاد أحمد أيضاً إلى البيت مجبراً بعد أن استحى من صديقه. لنشكل نحن الثلاثة جداراً يصعب عليه وعلى زوجته اختراقه. بالنسبة لها، كانت تحاول بأقصى ما تستطيع أن تختلط بنا أو تفتح معنا حديثاً حتى لو كان سطحياً، لتلقى الرفض الجازم من الثلاثة، خصوصاً أحمد وأنا. أما منى، فكانت تكلمها أحياناً بسطحية. أحمد

لا يجلس حيث تكون هي، وأنا لا أنظر في وجهها أبداً. حتى إنني لا أعلم كيف يكون لون عينيها.

صرنا نزور والدتي بانتظام في بيت خالتي. أزورها أنا كل خميس، ومع كل زيارة، أحضر لها شيئاً وأحمل أقصى تمنياتي بأن أرى ضحكتها مرة أخرى. أمي لم تعد أمي بعد الآن، صارت شبحاً لأعمال منزلية. تستيقظ في الصباح لتساعد خالتي في أعمال البيت أو لتقوم بها وحدها وكأنها روبوت مجرد من المشاعر. تتكلم بشكل عادي لكن بدون مشاعر، ولا مزاج للمزاح أو الضحك، وكأنها في غيبوبة وهي مستيقظة، غيبوبة ترفض الخروج منها.

اقترحت علي خالتي أن نأخذها إلى طبيب نفسي علّه يفيد في حالتها، لكنها فور سماع حديثنا شاجرتنا كثيراً وعارضت الأمر بشدة، مدعية بأنها امرأة سليمة عقلياً، وعلى أبواب الطلاق، ولا وقت لديها لهذه الأمور، بالرغم من أنها لم تقدم أي طلب لأي محكمة. لم أفهم إن كانت تنتظره هو أن يرسل الأوراق إليها ظنّاً منها أنه يريد أن يطلقها، أم أن عقلها اختل لا سمح الله. المهم أن حالتي أنا أيضاً تدهورت مع تدهور أوضاعنا. صار القلق رفيقي الأوحد وتزوجت من التفكير الزائد. شرودي في محاضراتي لفت انتباه الجميع. وما عدت أتردد إلى المكتبة بعد الآن، صارت طلعاتي مع الفتيات باردة تخلو من الحركة والكلام، حتى قررت عدم الخروج مجدَّدًا كي لا أعكر صفوهن بتجهمي الدائم.

.....

رفضتكَ أنا هذه المرّة*

في إحدى الأمسيات، في طريقي لمغادرة المدرج بعد محاضرة في الشعر الإنجليزي، لمحت شخصاً مألوفاً عند الباب. كانت نظراته مثبتة علي وكأنه ينتظرني. كان ذلك الشخص هو "يزن"! حدثت نفسي في طريقي القصير إلى الباب بأن يزن كان القطرة التي ستفيض الكأس. ما كان ينقصني سواه ليزيد حالتي تدهوراً. هل اتفق العالم على التسبب لي في انهيار عصبي أم ماذا؟ استمريت في السير ببطء بينما أشاهد شفته العليا تتقوس كاشفة عن ابتسامة عريضة رافقتها كلمة ألعنها كلما نطقها:

ـدارين!

ـيزن.

ـكيف حالك؟ عساك بخير؟

ـفي أفضل حال، ماذا عنك؟

ـأنا بخير أيضًا، شكرًا لك. في الحقيقة كنت أمر بالصُّدفة من هنا ورأيتك تجلسين هناك من زجاج الباب، ففكّرت في انتظارك وإلقاء التّحيّة!

قالها في حرج تام مع حكة خفيفة بكفه على ظهر رأسه، حتمًا هو يكذب. الصّدف لا تحصل معي أنا. حضوره أمر مخطط له حسب علمي ومعرفتي بيزن القديم، إن ما زال موجودًا.

ـفهمت، مرحبًا بك إذًا.

ـنشرب قهوة معًا؟

ـلست من مشجعي القهوة، آسفة.

ـآه نسيت، عصير إذًا، ما رأيك؟

ـحسنًا، العصير جيّد.

ـرائع، تفضَّلي من هنا!

سرت معه بعدم اكتراث للعالم أجمع، لا حول لقلبي في هذه اللحظة لينبض، فالمزاج معكر والنفس لا تهوى شيئًا.

جلسنا على إحدى طاولات كافيتيريا الجامعة بعيدًا عن الضّجّة التي يحدثها جمع من طلّاب السّنة الأولى. بعد أن أحضر كأسين من عصير البرتقال ووضعهما على الطاولة، نظرت إليهما طويلاً ثم رفعت رأسي ناحيته وقلت:

ـحتّى إنّك لا تتذكّر أي نوع عصير أحب، إنّه لأمر مثير للسّخرية.

ابتسم ابتسامة جانبيّة واعتدل في جلسته ثمّ وضع كوبه على الطّاولة ورمقني بنظرة جديّة ثمّ قال:

ـبلى، أنا أتذكّر تمامًا، تفضّلين عصير التّوت وكلّ ما صنع من التّوت.

عقدت حاجبي في استغراب ثمّ قلتُ:

ـإذًا لماذا أحضرت عصير البرتقال؟

ـلم أرد تذكيرك بالأيَّام التي كنّا نشرب فيها عصير التّوت، قلت في نفسي أنّك حتمًا لا تريدين استرجاعها، هل أنا مخطئ؟

ـشيء من هذا القبيل، لا تقلق، لست الشخص الذي يربط الأماكن والأشياء بالذكريات السيئة، لست ظالمة لهذا الحد.

ـإذًا تقولين أنّها ذكريات سيّئة! همم.

ـليس تمامًا، لكن تقريبًا. فالرِّحلة الجميلة التي تنتهي بحادث مرور لا تعود جميلة!

ـهل انتهت رحلتنا بحادث مرور بالفعل؟

ـنعم، حادث أودى بانتهاء حياة شخص على الفور، وجروح بالغة للآخر تسببت في موته بعد معاناة طويلة.

ـلا زالت طريقة كلامكِ جذابة، هه، لطالما تفنَّنتِ في الرُّدود.

ـمجرّد حديث.

قررت التزام الصمت قليلاً بعد أن حدقت بعينيه لأكثر من دقيقة، مما ساهم في استعادة عقلي الذي كان غائباً

عند موافقتي للقدوم معه إلى هنا. ما الذي أفعله أنا مع هذا الإنسان!!

بدأت بجمع أشيائي مخاطبة إياه:

ـحسناً، عليّ الذهاب. كان هذا ممتعًا ربما، لكن الوقت تأخر.

ـلحظة، لا ترحلي، أريد إخبارك بأمر.

ـحسنًا، تفضل، ما الأمر

صمت قليلاً ثم وجه نظره إلى الأسفل وكأنه يخجل مما سيقول، ثم قال:

ـدارين، أعلم أنّني لم أكن شخصًا صالحًا معكِ، لم أعاملكِ كما ابتغيتِ ولم أعرف قيمتكِ. قد عانيتِ بسببي لسنوات، ولم أدرك ذلك إلّا بعد أن رحلتي عني تمامًا. وجدت نفسي أشتاق إليك بجنون. حاولت ألف مرة التواصل معكِ لكنني كنت أتلقى الرفض في كل مرة. بعدها فقدت أملي تمامًا، وقررت بناء حياتي من جديد. حتى ظهرتِ أمامي مجدداً يوم حفل تخرجي بعد أن دفنتك في الأعماق. هل تصدقين أنني تمنيت حضورك وقتها؟ كانت تلك أول أمنية تتحقق في وقت قياسي كهذا. عندها أدركت إدراكًا مؤلمًا أنني ارتكبت خطأ فادحًا، وأنّني كنت مخطئًا... ما كان عليّ تركك، بل كان يجب عليّ أن أقابل أباك وأطلب يدك. ما كان عليّ الاستسلام أمام نفسي السيئة. صدقيني، قد كنتِ أنتِ من أرادها قلبي بصدق. أنتِ خسارتي الوحيدة يا دارين. بعد أن كنتِ مكسباً فريدًا من نوعه. أعتذر بشدّة عن كلّ الذي تسببتُ به لك. سأكون وقحًا لو طلبتُ فرصة ثانية، لكنني أرحب بوقاحة ستعيدك إليّ أو تعطيني أملاً ضئيلاً بذلك.

كنت أحدق به طيلة الوقت وهو يتكلم. لاحظت ارتعاش أصابعه وفركه لها باستمرار، وانزعاجه من الانسدال المستمر لخصلته السوداء على عينيه. لاحظت كم أن أنيابه بارزة وكم عدد التجاعيد التي تظهر في جبينه عند رفعه لحاجبيه. ولم يغب عن ناظري زر قميصه الأول المقطوع. تبا، كم أكره نفسي

عند التحديق بتفاصيله. أفقت من غفوتي على سؤاله:

ـفكري بالأمر وأخبريني. يمكنك التفكير كما تشائين...

استجمعت شتات نفسي الذي لم يتشتت بسببه طبعًا. ثم انحنيت بجذعي نحوه لأقترب منه أكثر وقلت:

ـ آسفة يا سيد صحراوي، لكن الأقلام جفَّت، الصبر لم يعد حلًّا، ولا قلب ينتظرك بعد الآن. إن كنت تبتغي أن أسامحك، فلك ذلك. لا شيء لك عندي، ولا شيء لي عندك. لكن إعادة لصق الكأس المكسورة بالشريط اللاصق لا يعيد إليها مظهرها السابق. لن أنكر أنني عانيت بسببك، لكن حسب كلامك فقد ذقت القليل منه أيضًا، لذا أظننا متعادلين. والآن، بعد إذنك، لدي حافلة ألحق بها. إلى اللقاء.

ثم نهضت دون سماع رد منه، نهضت وكل خلية بي تخبر الأخرى أنني لم أتعافَ منه تمامًا. لست أدري إن كنت سأفعل أم لا، لكن الشيء الوحيد المتأكدة منه هو أن بيتًا قائمًا في زاوية ما من قلبي الضعيف سيظل يخصه دائمًا. يخصه هو فقط، لكنه لن يمتلك ركنًا حتى في حياتي. لن أسمح له بالدخول مجددًا؛ لأن البعثرة عادة سيئة لديه، وأنا أحب النظام ونفسي حبًا جمًّا.

عدت إلى المنزل، أجرّ قدمي بخطوات ثقيلة، بعد الوضع الذي كنت به للتو. فكرت في مدى تغيّري وقوتي عند رفضي طلب يزن وجهًا لوجه.

من كان يظن أن يزن ذاته سيعود يومًا حاملًا عبارات الندم! ومن كان ليعتقد أن دارين سترفضه؟ أظن أن الكثير قد تغيّر بالفعل.

وجدت نفسي عند عتبة الباب دون أن أنتبه للمسافة التي قطعتها من محطة الحافلة إلى البيت. فتحت لي منى الباب بعد دقة واحدة، وهو أمر غير اعتيادي أن تفتح منى الباب. قابلتني بابتسامتها العريضة وكأنها على وشك إخباري بشيء ما، فتلك نظرة أعرفها جيدًا.

ـ دارين، أسرعي! لدي ما أخبركِ به!

ـ خيرًا إن شاء الله.

سحبتني من مرفقي، تدفعني نحو غرفتنا بحماس، ثم أجلستني على طرف السرير وانحنت هي على ركبتيها، ثم قالت:

ـ أمير سيتقدم لطلب يدي!

طبعًا، أمير كان الشاب الذي تواعده منى منذ قرابة العامين. بالنسبة لي، هو شخص طيب، متواضع، حسن الأخلاق، أكسبه ودّ الجميع. كنت ألتقيه أحيانًا عند ذهابي إلى البنك حيث يعمل. اتسعت عيناي لسماع كلامها، فلم يكن هذا ما توقعته، وتقوّست شفتاي على الفور، أشاركها الابتسام.

ـ فعلًا؟ متى وكيف وأين؟ هل أخبرتِ أمي بهذا؟ وماذا عن أحمد؟

ـ أخبرت أمي صباح هذا اليوم، وكنت بانتظارك لنخبر أحمد معًا.

قالتها، ثم خفضت بصرها وخفّت ابتسامتها قليلًا، ثم قالت بصوت يشبه الهمس:

ـ أما عنه فلا أدري كيف أفاتحه بالموضوع. أعلم أن أحمد لن يرضى أن يكلمه أبدًا.

تلاشت ابتسامتي أنا الأخرى، لكنني استرجعتها بسرعة رغبة في عدم إفساد بهجتها.

ثم قلت:

ـ لا تقلقي يا عزيزتي، اتركيها عليّ. سأحدثه أنا.

ـ أحقًا!؟

ـ نعم، سيكون هذا سهلًا. تمني فقط ألا يعترض أو يفتعل مشكلة ما!

ـ أتمنى هذا من كل قلبي. حسنًا، إذن هذا المساء سنخبر أحمد، وبعدها أخبريه أنتِ. اتفقنا؟

ـ اتفقنا يا جميلة.

في المساء، انتظرنا رجوع أحمد إلى البيت، ثم دلفنا إلى غرفته معًا. طرقت الباب عدة مرات حتى تكرّم علينا بالاستجابة وفتح أخيرًا، ثم مال بجذعه الضخم على طرف الباب وحدّق بنا بحبتي العسل خاصته. بينما تبعثرت خصلاته البنية في كل مكان تكاد تلامس وجهه.

ـ هل أنا رهن الاعتقال؟ لدي الحق في توكيل محامٍ.

قالها مازحًا بصوت يشوبه تعب واضح. رددت عليه أنا:

ـ ألا تخشى علينا الموت ضحكًا من حسّ فكاهتك يا أخي الوسيم؟ تنحَّ جانبًا، نريد الدخول. لدينا أمر نخبرك به، هيا أغلق الباب.

ـ لم أفعل شيئًا، صدقوني.

قالها بينما يهم بإغلاق الباب خلفنا، ثم جلس على السرير يقابلنا. كنت قد بدأت في تفحص زوايا الغرفة بعيني حتى قاطعتني نكزات منى التي آلمتني، تريد مني الكلام بحجة خجلها. لذا، تخنحت قليلًا ثم نظرت إليه لأجده يترقب ما سأقوله:

ـ أحمد، يا أخي الكبير، لنتكلم بجدية. نحن لم نعد صغارًا كما اعتدتنا. ربما لم تلاحظ، لكن كلتانا كبرت، والجميع يعلم جيدًا مصير الفتيات عند وصولهن إلى السن المناسبة. ما أريد قوله يا عزيزي هو أن شخصًا ما سيتقدم لطلب يد منى قريبًا. هذا ما أردنا إخبارك به. ما رأيك؟

عقد حاجبيه في استغراب شديد أو ربما صدمة خفيفة. تحولت ملامحه الساخرة إلى جدية تامة. مسح على شعره بيمناه، ثم نظر إلى منى وقال:

ـ لم أتوقع أن يكون هذا هو موضوعكما. طلب يد؟ ما رأيك أنتِ يا منى؟ ومن هو هذا الشخص؟ يهمني كثيرًا أن أعلم قبل كل شيء.

قالت منى:

ـ يمكنني منحك رقمه وتكلّمه، لا أعتقد أنّك تعرفه.

ـ بالطَّبع سأتكلّم معه، لن أعطيك لأيّ كان.

بعد أن حللنا الجزء السهل، صار دور أصعب جزء: علينا أن نكلم أبي في الموضوع، ففي نهاية المطاف، هو ولي أمر الفتاة، ومنه ستؤخذ الموافقة. وكما سبق أن وعدتها، ذهبت لأكلمه مباشرة بعد خروجي من غرفة أحمد، بينما ظلت منى هناك. كنت قد حفظت جدول نوم تلك المخلوقة، لذا فضلت هذا التوقيت لمفاتحته بالأمر، ففي مثل هذا الوقت تكون قد استغرقت في عالم أحلامها المقرف منذ وقت طويل.

سرت بخطوات ثقيلة إلى غرفة المعيشة، حيث وجدته مضطجعًا على جانب الأريكة يقرأ جريدة ما. تقدمت، ثم تنحنحت بصوت مسموع كعلامة على وجودي لكي ينتبه إلي. رفع رأسه، ثم نظر إلي من تحت نظارته الطبية وقال:

ـ نعم، هل من شيء؟

أجبته:

ـ بلى، هناك ما أريد أن أحدثك بشأنه.

فرد بنبرة ساخرة:

ـ وما الأمر، إن شاء الله؟

لا أنكر أنني ترددت قليلًا قبل أن أتحدث، بل وحتى شعرت ببضع قطرات من العرق تتدحرج على جوانب رقبتي وجبهتي. خفت ألا يوافق على الفور أو يفتعل مشكلة ما. حينها، لن أسكت وسأتمرد عليه لتتضخم القضية، لكنني، ورغم كل شيء، لم أشأ إفساد فرحة منى. لذا، تركت الأمر للحظ والقدر.

تقدمت خطوات إضافية للأمام حتى صرت بجانب الأريكة المقابلة له. جلست عليها، ثم سحبت قدرًا كافيًا من الأكسجين ملأت به رئتي، ثم سمرت عينيّ بخاصته وقلت:

ـ هناك شخص ما يريد التقدم لطلب يد منى، ويريد التكلم معك لتتفقا على الموعد.

رميت الجملة رميًا، حتى إنني زفرت زفرة طويلة بعد نطقها، وكأنها عبء كان يثقل كاهلي. بقيت أحدق به أترقب حركة شفتيه وأي كلام ستفصح عنه. بعدها، فك عقدة ساقيه واعتدل في جلسته، ثم نزع نظارته ووضعها في علبتها، وطوى الجريدة بتمهل متعمد وكأنه يستفزني.

للحظة، تخيلت كلمة "لست موافقًا" وهي تخرج من بين شفتيه، ثم تخيلت كم من الأثاث والمزهريات سأكسر احتجاجًا على رفضه. لكنه لم يقلها، بل نظر إلي، شابكًا يديه ببعضهما وقال:

ـ أنا موافق. أعطه رقم هاتفي، ولنرَ ما يمكن فعله.

أجبته بابتسامة لأول مرة منذ أشهر عديدة، رغما عني:

ـ حسنًا، سيكلمك غدًا صباحًا.

قلتها منصرفة، لأبث الخبر السعيد إلى منى التي ستطير فرحًا فور سماعه، وأنا غير مصدقة أن الأمر كان بهذه السهولة.

كانت الرؤية الشرعية بعد يومين من حديثنا. حضرت فيها أمي لأول مرة إلى البيت بعد هجرها له، إذ لم تقدر على ترك ابنتها الكبرى تتولى زمام أمورها وحدها. تنازلت عن كل مصطلحات الكرامة والكبرياء ليومين متتاليين من أجل قطعة من قلبها. كما أن تلك البغيضة فضّلت المبيت عند أهلها حتى تمر المناسبة. كانت هي من أعلمنا بقرارها، وإن كنت أعلم يقينًا أن أبي هو من أملى عليها ذلك. المهم أننا سعدنا كثيرًا برحيلها بالطبع، فأمي لن ترتاح وهي تجوب المنزل في حضرتها.

مر اليومان في سعادة وارتياح، وضع فيهما كل منا آلامه ومشاكله جانبًا تضامنًا ورغبة في إكمال فرحة قطعة من قلوبنا. لم يفتعل أحد أي مشكلة، كما أن العائلتين تفاهمتا بشكل كبير لدرجة أنهما حددا موعد الخطبة بعد أسبوع من الرؤية الشرعية، مما جعل منى أسعد مخلوق في الدنيا حينها.

مع التجهيزات لحفل الخطوبة، استغرق كل منا في عمله الخاص. تولت أمي تحضير الحلويات، بينما اهتم أحمد بالأمور المتعلقة بالديكور والأشياء التي يجب كراؤها. أما أنا، فلم أعد أحتسب ساقي جزءًا من جسمي بسبب طلعاتي مع منى إلى السوق. لخصت تعب حياتي القادمة في أسبوع واحد، لكن الأمر استحق العناء بشكل كبير، لأن كل شيء سار على أتم ما يرام، وكانت الخطوبة أكثر من رائعة. مع انتهاء الحفل، تنفسنا جميعًا الصعداء. حقًّا، الأفراح متعبة بقدر ما تجلب السعادة.

تلك الليلة، كنّا قد شرعنا في التنظيف ولملمة المكان بعد مغادرة الضيوف جميعهم. حملت كيسًا بلاستيكيًا وانحنيت لالتقاط الأكواب المستعملة. فجأة، سمعت دقًا قويًا على الباب. رفعت نظري لأتفقد الوقت في ساعة الحائط، فوجدت العقارب تشير إلى العاشرة مساءً. تمتمت في نفسي وأنا في طريقي لفتح الباب: "هل هو ضيف متأخر أم ماذا؟".

عندما فتحت الباب، وجدت سيرين تقف محمّلة بحقائبها، وترتسم على وجهها ابتسامة غريبة تقارب الخبث. يبدو أن اللعينة قد عادت من بيت أهلها. ألم تقدر على قضاء ليلة إضافية حتى تغادر أمي صباحًا؟ تبا لحظي التعيس! شتمت نفسي بتوتر بعد أن أطلت النظر إليها وهي واقفة دون أن أتنحى جانبًا لتدخل. أفقت من شرودي على نداء والدتي:

ـ دارين، من على الباب؟

كنت على وشك الرد بشيء ما، حتى تفاجأت بتلك الوقحة تقاطعني، مجيبة أمي بكل ما تحمل كلمة "وقاحة" من معنى:

ـ إنَّها أنا، ضرَّتكِ يا سيِّدة فاطمة!

قالتها بنبرة لا تخلو من السخرية وبصوت عالٍ قد وصل إلى مسمع أمي بلا أدنى شك. التفتُّ إليها بصدمة وغضب، ثم رفعت إصبع التهديد في وجهها محذرة:

ـ الزمي حدَّكِ ولا تفتعلي مشكلة، دعي هذه اللَّيلة تمرّ بسلام، وإلَّا ستندمين أشدّ ندم!

أطلقت ضحكة عالية ثم تخطتني واقتحمت البيت، ترمي كلامًا بنبرة عالية وتبحث عن أمي بكل مياعة:

ـ تعالي لنتعرف يا ضرتي! لم تسنح لنا الفرصة حتى اليوم. لطالما قتلني الفضول لأتعرف عليكِ.

لحقت بها بسرعة، وشرايين رأسي تكاد تنفجر من الغضب، ودقات قلبي بدأت تتسارع معلنة تحضير نفسها لكارثة ما، وحده الله يعلم كيف ستنتهي! أمي لن تحتمل كلامها، وسيتشاجران، هذا أمر مؤكَّد، حتى أحمد لم يعد إلى البيت بعد، وإلّا لأخرسها قبل أن تبدأ، وزوجها لن يعود إلَّا بعد مدة هو الآخر... إلهي، يجب أن أخرسها.

لحقت بها إلى المطبخ، فوجدت والدتي مستمرَّة في غسيل الصحون دون أن تبدي أدنى اهتمام بتلك العاهرة التي ترمي كلامها برعونة:

ـ فهمتُ لماذا لم يعد عبدو يرغب بكِ، زاد وزنكِ كثيرًا يا أم أحمد، هه! ليت الشَّباب يعود يومًا، أليس كذلك؟

حمدت الله أن أمي لم تغضب بعد، ثمَّ بقبضة صارمة سحبتها من معصمها إلى الممرّ، ألصقتها بالحائط خلفها، وأغلقت على رقبتها النحيفة براحة يدي اليمنى بشدَّة، حدّقت في عينيها لأوَّل مرَّة منذ قدومها، ومن تحت أسناني قلت لها:

ـ منذ متى تتكلّمين برعونة هكذا؟ هل هي موهبة مدفونة كنتِ تنتظرين الفرصة المناسبة لاستعراضها، أم أنها طبيعتكِ التي كالفتِ لإخفائها عنّا؟

قبضتُ عليها أكثر حتّى بدأت تتخبّط تحت يدي كعصفور مخنوق، بينما تحاول والدتي سحبي عنها، إمّا خوفًا عليّ أو عليها. خرجت منى لاهثة بعد أن سمعت صراخ والدتي لتنضم هي الأخرى في محاولة منعهما لي من خنقها، حتّى تمكّنتا من نزع يدي عن رقبتها. لكن ما كدت أبتعد حتى عدت وأمسكتها من شعرها وتابعت كلامي بتهديد واضح:

ـ صدّقيني، لست أخاف السِّجن يا عزيزتي، فلا تجبريني على نسيان عقوبة القتل عمدًا! الزمي الصَّمت وابتعدي عن أمي وعنّا جميعًا، وإلّا أجبرتكِ على ذلك.

بعدها سحبتني والدتي معاتبة إيّاي بشدَّة، بينما كانت تلك الغبية تتقوّس على السّجّاد محاولة استنشاق الهواء لملء رئتيها. لم أستجب لكلام أمي، بل ظللت واقفة أشاهدها تتخبَّط مستمتعة بالمنظر، إلى أن انفتح باب البيت فجأة، ليظهر أبي.

تسمّرت أعيننا عليه، نراقبه وهو يحاول استيعاب ما يحدث. لم يستغرق وقتًا طويلًا حتَّى جثا على ركبتيه محاولًا الاطمئنان على عزيزته التي تنتحب بصوت عالٍ. خيّم الصّمت على ثلاثتنا، بينما كنّا نشاهد فيلمه التركي يعرض بالعرض البطيء، وبصوت مرتعش بدا عليه القلق والخوف، ناداها:

ـ عزيزتي سيرين، ما الأمر؟ ما الذي يحدث لكِ؟ من فعل بكِ هذا؟ أخبريني، من الوحش الذي فعل بكِ هذا؟!

ثمَّ وجّه نظره إلينا صارخًا:

ـ ما الذي فعلتموه لها؟ أخبروني!

أجبته بنبرة ساخرة واضحة:

ـ يبدو أن "سيرينك" ضعيفة البنية جدًّا، أطعمها لوزًا وبعض الشُّوفان.

كاد ينهض ليضربني، كما يبدو، لولا أنَّ تلك اللَّعينة تحدثت بصوت مرتعش كضبع جريح:

ـ إنَّها زوجتك من فعلت بي هذا!

ذهلنا جميعًا من كلامها. لماذا عساها تقول هذا؟! أنا من كدت أقطع أنفاسها، لا أمي!

حوّل أبي نظره سريعًا إلى والدتي، وقد بدا عليه الغضب العارم، وسألها إن كان ما تقوله سيرين صحيحًا. كدت أعترف بأنني الفاعلة، لولا أن أمي شدت يدي مانعة إياي. نظرت إليها مستفسرة عن السبب، فوجدت الحيرة والتوتر مرتسمين على وجهها المُتعب، ثم قالت بصوت منخفض:

ـ نعم، أنا الفاعلة.

لم أستجب لرغبتها، بل صرخت بنبرة فاقت نبرتها:

ـ بل أنا من ضربها! هي من بدأت بافتعال المشاكل. إنها هي الحقيرة، وأنا من حاولت خنقها، وليس أمي!

ثم وجهت نظري إليها صارخة:

ـ أخبريه الحقيقة، أيتها اللعينة! لماذا تكذبين؟!

أجابتني وهي تنتحب:

ـ لماذا تدافعين عن والدتكِ؟ ليس لكِ دخل في الموضوع. هي الفاعلة.

كدت أجن من كلامها، وأوشكت على مهاجمتها مجدَّدًا لولا أنّ أمي ومنى ثبتتاني بإحكام.

نظرت إلى أبي لأجده ينهض واقفًا، ثم بدأ يقترب من والدتي ببطء شديد، يحدق بها بعينين مرعبتين، وقال:

ـ أخبرتكم أنها زوجتي، ولا يحق لأحد أن يلمسها. ألم أفعل؟ ألم أقل إن من لم يعجبه الأمر فلينصرف؟

انفجرت أمي باكية وهي تقول:

ـ زوجتك، أيها الخائن، أليس كذلك؟ وأنا من أكون؟ ألم أكن زوجتك قبلها؟ ما الذي تغير يا عبد الحميد؟ ما الخطأ الذي ارتكبته لتخرج وتبحث عن العاهرات؟ أخبرني، ما الذي حدث؟!

بدا وكأنه لا يسمع كلامها، بل واصل سؤاله لها بشكل مريب، بينما نحن نحاول إخباره بأنها المخطئة، وسط فوضى عارمة علت فيها شهقات الجميع.

وقفنا بينه وبين أمي تحسبًا لأي حركة منه.

بدا أبي غير طبيعي، إذ ظل يكرر نفس السؤال وكأنه لا يسمع صراخنا:

ـ أخبرتكم أم لم أفعل؟!

بعد أن كفَّ عن سؤاله، دفعني بعنف نحو الحائط المقابل لي لأصطدم به بقوة، ثم استقررت على الأرض. سقطة كهذه جعلت رأسي يدور مئة وثمانين درجة، ثم كرر الأمر مع منى، غير أنّه صفعها قبل أن يدفعها إلى الجانب الآخر. بدا شكله مرعبًا، وكأنه ثور إسباني في قمة الغضب أُطلق من قفصه عن طريق الخطأ. بعدها، شاهدته يتجه نحو أمي بسرعة مخيفة ليصفعها صفعة أسقطتها أرضًا بقوة أكبر من المرة الماضية. لم يكتفِ بذلك، بل شرع في ركلها على مستوى المعدة بقسوة دون توقف بعد سقوطها.

هلعتُ لمشاهدة المنظر، فنهضت بصعوبة متجاهلة الألم في ضلوعي وكتفي الأيمن. صرخت عليه باكية، وحاولت منعه من ضربها بهذه القسوة. دفعته بكل ما استطعت من قوة، أنا ومنى، وسط صراخ متواصل وبكاء حارق، بينما كانت أمي تتألَّم في صمت تحت قدميه الوسختين. كفّ أخيرًا عن ركلها بعد أن أصابه الإعياء أو ربما الطنين في أذنه من شدة صراخنا عليه. تجاهلناه وتصرفه الوحشي، وصببنا جل اهتمامنا بأمي المتألمة. صرختُ بمنى أن تحضر لي هاتفي لأتصل بالإسعاف، بعد أن نزف وجهها من قوة الصفعة التي أفقدتها وعيها بعد عدة ركلات حقيرة منه. أمسكتُ الهاتف، ثم اتصلت

بالإسعاف في هلع شديد وأنا أنتحب وأغرق في الدماء المتسربة من وجنتها. يا إلهي، كم هو قاسٍ وبلا قلب.

لم أشعر به وهو يحمل عاهرته، التي استمتعت بالعرض، بين يديه ويغادر بها البيت. حضر الإسعاف بعد ربع ساعة تقريبًا، فنقلناها إلى أقرب مستشفى بعد وصل قارورة أكسجين بوريدها. ركبنا كلانا بعد أن اتصلنا بأحمد وطلبنا منه اللحاق بنا إلى المستشفى الذي نقصده.

لم يجتحني شعور كهذا من قبل في حياتي كلها. تراكمت الكوارث كلها واتحدت فيما بينها لتشن هجومًا عديم الرحمة عليّ مرة ثانية. تسارع الأنفاس واختلاطها مع الدموع يولدان إحساسًا باقتراب النهاية. داخل سيارة الإسعاف تلك، لم تهدأ نفسي لثانية طوال الطريق إلى المستشفى. جلست أضغط على يد أمي بشدة، وكأنني أخاف إفلاتها فتضيع مني. وبيدٍ أخرى، أربت على كتف منى بصمت لا أتحكم فيه، محاولًا تهدئتها عبثًا. اتضح بعد معاينة الممرضين لها أن نبض قلبها يتباطأ، مما يجعل إصابتها بسكتة قلبية احتمالًا واردًا.

لم يكن عقلي المضطرب يتخيل حدوث شيء أكثر سوءًا في ذلك الوقت؛ فقد بدا ذلك الخبر كملك الهموم، وقد تربع على عرش قلبي المغلوب على أمره، يعتصره بقوة...

بعد أن طلبت الممرضة من السائق أن يضاعف سرعته، فهمتُ أنّ الوضع خطير ويحتاج إلى تدخل طبي في أقرب وقت. لم أجد نفسي بعدها إلا وقد أفلتُّ يد أمي وضممتُ يديَّ وشرعتُ في الدعاء. لجأتُ إلى من لا يرد اللاجئين، ودعوتُ أن تمر هذه الليلة كسائر الليالي المريعة التي نؤمن بأنها ستزول بفضله. وضعتُ جلَّ ثقتي به كما اعتدتُ أن أفعل عند الشعور بأغلال القدر التي تقيد أضلعي.

بعد وصولنا إلى المستشفى، أدخلها الممرضون إلى غرفة الاستعجالات وأوصدوا الباب. لم أعلم كيف سأجلس حينها أو ما الذي سأفعله، لطالما شاهدت مثل هذه المواقف على الشاشة، حيث يُدخَل المريض إلى العناية وتنتظر عائلته خارجًا. لكن لم أدرك يومًا كم هو شعور مقرف ومريع؛ الانتظار في المستشفى يُصنف رقم واحد على قائمة أقسى الانتظارات.

استمريت في الهرولة ذهابًا وإيابًا في الرواق، بينما كانت منى تجلس ضامة ركبتيها إلى وجهها في نحيب مؤلم. أدرتُ ظهري إلى باب المستشفى بعد أن سمعتُ أحمد ينادي باسمي، لأجده هلعًا يسألني عما حدث ويهزني بقوة. حينها لم أعلم كيف سأخبره بأنه ضربها؛ لأنني، وحسب علمي الجيد بأحمد، سيحول المستشفى إلى حطام ثم يواجه والده، لينتهي به الأمر خلف قضبان السجن. وجدت نفسي أخبره بأن أمي أُغمي عليها ولم تشأ الاستيقاظ، لذا هلعنا أنا ومنى ولم نعلم ما يجب علينا فعله، فقررنا أن نطلب الإسعاف.

بالطبع، لم يقتنع تمامًا، لكن جنونه هدأ قليلاً. احتضنني بقوة مطمئنًا إياي بأن كل شيء سيكون بخير، بينما زاد قلقي أضعافًا وأنا أفكر في اللحظة التي سيعلم فيها سبب دخولنا المستشفى. لن أخبره بشكل مباشر، لكن الجرح الذي أحدثه عديم الرحمة في وجهها سيعطيه المعادلة بلا أدنى شك، وسيعلم أن الأمر أكثر من مجرد فقدان وعي. لن يقدر أحد على إسكات أحمد حينها، خصوصًا أنه يحمل له كرهًا منذ ضربها أول مرة. ستحدث كارثة؛ فأحمد شديد التهور عند الغضب، وتصرفاته لا تُحمد عقباها.

بعد ثوانٍ، فكَّني من بين ذراعيه وتوجه نحو منى يحاول تهدئتها هي الأخرى. جلسنا على حالنا ننتظر قرابة عشرين دقيقة قبل أن يخرج طبيب ليخبرنا عن حالها. هرعنا نحوه فور قدومه، نستفسر بقلق شديد ونسأله عن الوضع. حمدنا الله كثيرًا لأنه طمأننا بعدم تعرضها لسكتة قلبية، لكنها كانت على وشك ذلك. ثم سأل أحمد باستغراب عن سبب الكدمة الموجودة على خدها الأيسر. تيبست أضلعي عندما نظر أحمد إليَّ باستغراب شديد، يسألني عن سببها:

ـ دارين، ما الذي يقوله؟ أي كدمة! لقد قلتِ إنها فقدت الوعي فقط، لكن لم تذكري شيئًا عن أي كدمة. ما الذي وقع فعلاً؟!

ابتلعت ريقي بصعوبة شديدة وكأنني أبتلع أشواكًا، ثم حركت شفتي بخوف شديد وقلت:

ـ لقد تشاجرنا مع الحقيرة سيرين، وأبي هو من ضربها. لم أرد إخبارك خوفًا من ردّة فعلك. أرجوك، لا تفعل شيئًا.

قلت ذلك وأنا أتشبث بذراعه بعد أن بدأت عروقه تغلي لما سمعه. بعدها، وجدته يخرج هاتفه ويضغط الأزرار. بعد ثانيتين نطق:

ـ ألو، الشرطة؟ نعم، أريد أن أقدم شكوى عن شخص ما، قضية اعتداء بالضرب، نعم، في الحال.

أنهى حديثه وغادر مسرعًا، متجاهلاً ترجيَّاتي بعدم الإقدام على هذا الأمر، وطلبي منه التروي وعدم التهور، لكن لا حياة لمن تنادي. صلابة الرأس أهم ميراث له عن جده.

بعدها، عدت إلى الطبيب الذي كان لا يزال واقفًا يشهد بؤسًا عائليًا لا ينتهي. أخبرني بأن المستشفى كان سيطلب الدرك على أي حال، فحوادث كهذه تستدعي القانون بلا أدنى شك. ثم قال إنهم سيبقون والدتي تحت المراقبة هذه الليلة تحسبًا لأي جديد يطرأ على حالتها.

بعدما طلبنا منه رؤيتها، أخبرنا بأنها نائمة ويجب تركها تحصل على قسط من الراحة. نصحنا بالعودة إلى البيت، إلا أننا لم نرضَ بذلك وقررنا أن نقضي الليلة على مقاعد الانتظار الباردة. حاولت تلك الليلة الاتصال بأحمد أكثر من مرة، إلا أن هاتفه كان مغلقًا طوال الوقت.

في اليوم التالي، عند الصباح الباكر، استيقظت على ألم حاد في رقبتي نتيجة الاتكاء على طرف الكرسي، وألم أشد في جانبي الأيسر، لا شك أنه وليد سقطة البارحة. توجهت إلى حمام المستشفى بعد أن أيقظت منى، ثم قررنا رؤية أمي. دخلنا الغرفة التي تستلقي بها بعد أن أخذنا الإذن من مشرفة الممرضين. وجدناها وقد لفوا ضمادة على خدها، وعدة أسلاك انغرست في عروقها لتتصل بأكياس معلقة في الهواء وأخرى متصلة بجهاز ما.

كانت عيناها مفتوحتين، ويبدو أنها استيقظت منذ قليل. أدارت رأسها فور رؤيتنا، فبدأت دموعي تنهمر دون إذن فور التقاء أعيننا. وكذلك منى، التي كانت قد بدأت بالبكاء قبل رؤيتها حتى. جلسنا على أطراف السرير، بينما حدقت هي بنا بعين حزينة. نظرتها تلك لن أنساها ولن تمحى من ذاكرتي حتى الممات. رؤيتي لعجزها ومقابلته بعجز أكبر كانت أكبر خسارة لي وأشد الأمور إيلامًا لقلبي.

ارتشفت دموعي، ثم قلت بعد أن أمسكت يدها وأطبقت عليها بيدي:

ـ أمي! هل أنت بخير؟ كيف حالك الآن؟

ردت عليَّ بنبرة عميقة وكأنها تقول إن كل ضلع فيها قد سُحق إلى قطع صغيرة، ليس نتيجة الضرب، بل نتيجة الخذلان والخيبة المؤلمة:

ـ أنا بخير يا بناتي الجميلات، لا داعي للقلق.

ردت منى بصوت باكٍ:

ـ من أين الخير يا أمي؟ من أين؟ نحن خفنا أن نخسرك، خفنا عليكِ كثيرًا.

صمتت قليلاً ثم أضافت:

ـ كل هذا بسبب تلك الحقيرة. هي السبب. لا أفهم كيف يفعل أمرًا كهذا، كيف له أن يمد يده عليك بهذه الطريقة الفظيعة؟

أجابتها أمي بجملة جعلت حواسي تتقاتل فيما بينها:

ـ لننسَ ما حدث ونعتبره من فعل الشيطان يا ابنتي.

أجبتها بسرعة واستغراب:

ـ عفوًا! ما الذي علينا أن ننساه؟ لم أفهم!

ردفت منى:

ـ ماذا تقصدين؟!

تنهدت أمي بعمق، ثم اعتدلت في جلستها وأمسكت يدي كلٍّ منا ونظرت إلينا قائلة:

ـ اسمعاني جيدًا، أنا أم لثلاثة أبناء، عملت نصف حياتي كلها من أجل إسعادكم، بنيت آمالًا غبية على والدكم، ظننتُ أنه سيكمل معي المشوار ونرى أحفادنا معًا، لكن للحياة أقدارها ولله مشيئته، وشاء سبحانه أن يقسو قلب أبيكم عليَّ وينتزعني من قلبه... لا أعلم كيف ولماذا، لكنه لم يعد يرى بي ما كان يراه في السابق، وهذا أمر بيني وبينه، أما أنتم، فلا شأن لكم به، فهو والدكم ولم يُسئ إليكم في شيء، بالنسبة لي، مسامحته لن تكون أبدًا، أما أنتم فلا ذنب له عندكم لكي تسامحوه، ومن الخطأ أن تحملوا كرهًا تجاهه.

ثم تابعت بعد أن أسكتتنا حين أردنا مقاطعتها وأردفت:

ـ لقد أتى في الصباح إلى المستشفى لرؤيتي قبل أن تدخلوا أنتم بساعة، وطلب مني أن أسامحه في سيمفونية بكاء مدتها نصف ساعة تقريبًا. مضمونها أنه يريد مني الرجوع إلى البيت وأنه نادم على فعلته بشدة، وبما أنني صرت عبئًا على خالتكم، سأرجع إلى البيت، لا حبًّا فيه ولا لانعدام كرامتي، بل لأنني لا أريد أن أضيع مستقبلكم وأهلكم أكثر من هذا، كذلك، لا ثقة لي بتلك الشمطاء... ستظلون تحت مراقبتي عندما أكون هناك، فالبيت من حقي أيضًا، لا أعلم كيف غاب عن ذاكرتي أنني شاركته في ثمنه ببيع بعض الحُلي التي تخصني.

قاطعتها أنا باحتجاج تام على ما قالته:

ـ ما الذي تقولينه؟ هل جننتِ؟ أمي، لقد ضربنا جميعًا، ولستِ وحدك من تأذى منه، وحتى لو كنتِ الوحيدة، فهذا لا يبرر فعلته أبدًا... هل صدَّقتِ كلامه؟ هل تذكرين أنه فعل نفس الشيء سابقًا عندما ضربك لأول مرة؟ هو يضرب، ثم يأتي باكيًا في كلّ مرّة، ورجوعك إلى بيته يُعد مسامحة، أليس كذلك؟

سكتُّ، لتضيف منى:

ـ ما تقوله صحيح، لا تفعلي بنا هذا، لا أحد منا يريد العيش مع تلك الشمطاء ولا معه هو بعد ما فعله... ألا تستوعبين؟ لقد أدخلكِ المستشفى!

أضفتُ أنا بنبرة عالية بعد أن نهضتُ من مكاني:

ـ ما هذا بحق الجحيم؟ أهي الجاهلية الأولى؟ يضربكِ زوجكِ ثم تعودين إليه ليستمر في ضربكِ حتى الموت؟ ألا يوجد قانون؟ إذا اضطر الأمر، سنعمل جميعًا وندبر مكانًا نبيت فيه ولن نعود إلى حيث ينام هو وعشيقته.

سكتُّ قليلاً، ثم أضفت:

ـ على ذكر القانون، اِلحقِ بابنكِ، لا شك أنه يُوقّع وثائق الشكوى الآن، إن لم يكن قد فعل الليلة الماضية. لقد اشتكى على الرجل الذي تنعتينه والدنا.

نظرت إليَّ دون استغراب، وكأنها تعلم بالأمر، ثم قالت:

ـ نعم، لقد أخبرني بذلك. لم تقبل الشرطة شكواه. عندما حضر والدكم، فسّر لهم الأمر على أنه مشكلة عائلية بسيطة انتهت بحادثة صغيرة. وإن لم أدلِ أنا بأقوالي ضده، فلن يحدث شيء.

صرختُ بها:

ـ إذًا أدلي بأقوالك! أخبريهم أنه ضربك حتى فقدتِ وعيك وكاد يسبب لك أزمة قلبية. أخبريهم بكل شيء. لماذا الخوف منه يا أمي؟ لماذا؟

نظرت إليَّ نظرة حادة، ثم صرخت هي الأخرى:

ـ خوفًا؟ أتنعتينه خوفًا؟ دعيني أخبرك لماذا لن أشتكي عليه، إن كنتِ لا تعلمين. لن أشتكي لكي لا تخجلي بين الناس عند مرورك بالمدينة، لكي لا يقول أحدهم يومًا "أمها سجنت أباها". لا أشتكي لكي لا يعايرك أحد بصاحبة

المشاكل العائلية. تظنين أن القانون حل لمشاكل كهذه؟ تعتقدين أن سجنه سيجلب لي ولكِ الراحة؟ إنه والدكِ! أفيقي من غفوتكِ وتذكري من هو أبوكِ وفضله عليكِ. لن أحصد سوى الندم في كلتا الحالتين. لذا، أفضل الندم على العيش معه، شرط أن يستمر في إعالتكم، على الندم على سجنه والاضطرار إلى إعالتكم بنفسي وتحمل أصابع اتهام الناس التي ستوجه إليَّ وإليكم طوال عمري المتبقي.

رددتُ عليها:

ـ إذًا، تحمُّل الضرب والإهانة أهون عليكِ من تحمل مسؤوليتنا؟ هكذا تقولين؟ كيف ستعيشين مع تلك؟ ما الذي يضمن أن هذه الحادثة لن تتكرر مجددًا؟

أجابتني:

ـ بالنسبة لي، لن أنبس ببنت شفة حتى لو هاجمني صباحًا ومساءً. الأمر عائد إليكِ، ما إن كنتِ تستطيعين التجاهل!

قالت منى:

ـ معها حق يا دارين. لا يمكنني تخيل أبي في السجن. أنا أحبه رغم كل شيء، إنه أبي مهما فعل ومهما ضربنا. ربما هو نادم فعلاً. دعينا لا نفرق عائلتنا. كما أن العديد من الناس يملكون زوجتين، بل ثلاثًا وأربعًا. لنتجاهلها وحسب، هي ستملّ.

وربما ستغير رأيها وتنطلق منه إن وجدَتنا متماسكين وأحسّت بأنها هي الغريبة. أما إن ابتعدنا وتركنا المنزل له، فلا محالة من أن تغادر.

رمقتْ أمي بنظرة حسرة وعتاب، ثم غادرت الغرفة متمتمة بغضب:

ـ لن أسامحه يومًا، لن يحدث هذا.

بعد خروجي، التقيت بأحمد يقف خارجًا. هرعت إليه أشتكي له ما قالته أمي، علّه يغير رأيها أو يفعل شيئًا ما:

ـ أحمد، أخي، أتسمع ما تقول أمك؟ تريد العودة إلى المنزل لتمكث مع أولئك الظالمين. أرجوك، افعل شيئًا. هي لا تريد تقديم شكوى ضده حتى بعد أن هشّم وجهها.

نظر إلى وجهي نظرة يأس، رأيت فيها الدموع وقد تحجرت داخل مقلتيه تأبى النزول. تنفس بعمق ثم أمسك بيدي وقال:

ـ لقد تحدث معي أمس، واعترف بخطئه وأقسم أنها ستكون آخر مرة. ليس بيدي حيلة يا دارين، إنه أبونا. ما عساي أن أفعل؟ أأحاربه كغريب؟ أعلم حجم الكارثة التي أقدم عليها، لكن إن سامحته هي، فما عليّ إلا أن أرضخ لرغبتها. لنضع للأمر حدًّا عند هذا وننتهي من المشاكل.

سحبت يدي من يده بسرعة ثم قلت:

ـ مجانين! كلكم مجانين، حتى أنت!! حتى أنت يا أحمد! لماذا أنا الوحيدة التي تدرك حجم الأمر؟ هل وصل بكم الغباء إلى هذا الحد لتصدقوا اعتذاراته؟

هو ليس أبي، لقد تغيّر. رأيت ذلك في عينيه. لم يعد الشخص الذي تعرفونه! سيعيد الكرة مرة ثانية وثالثة ورابعة، وسيشبعكم من جزاء مسامحتكم له. انتظروا وشاهدوا.

قلت ذلك، ثم انصرفت خارج ذلك المستشفى اللعين أستشيط غضباً ولا فكرة لديّ إلى أين توجهني قدماي.

بعد أن استقليت الحافلة، وجدتني أترجل عند باب مكتبة المدينة التي هجرتها منذ عدة أشهر لأسباب بعضها معلوم والبعض الآخر مجهول. لم يخطر ببالي أي مكان آخر غيرها قد يفيد في تهدئة أعصابي التي تحترق. كنت بحاجة ماسّة إلى مكان خاص بي، مكان يعمه الهدوء، لا بلبلة الناس، حيث أستجمع نفسي وأعيد ترتيب أولوياتي التي بعثرت. يبدو أن لا مكان ينافس المكتبة في الهدوء والسكينة. فالكتب هناك قد هجرت منذ زمن، واستُبدلت بألواح إلكترونية اخترعها شخص ما بمساعدة كتاب ذات يوم! لكن لا أحد هنا ليذكر فضل الكتاب عليه وعلى النعمة التي يستمتع بها.

بعد أن عبرت بوابتها الحديدية، ألقيت السلام على عمي رشيد، أمين هذه المكتبة منذ عقد من الزمن. رد السلام ببحة عجوز هرم لا تفارقه ابتسامة تملؤها التجاعيد. كل تجعيدة فيه تروي قصة مختلفة. هناك قصة عن السبب وراء حبه العظيم للأوراق والكلمات، التي تجسدت في تفانيه في العمل ورفضه تسليم مكانه لأي كان. كنت قد سألته ذات مرة عن سبب رفضه

التقاعد من عمله، فأجابني بأنه قطع وعدًا لكل كتاب على كل رف في هذه البناية. أخبرهم بأنه سيعتني بهم حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة بينهم، ولن يسلمهم لشخص آخر؛ فهو لا يثق بالبشر، ومن يخون عهد الكتب خائن أدبي لا مكان له بين القراء.

هناك أيضًا قصة اعتدت سماعها منه عن زوجته الراحلة "مريم"، التي كانت السبب في عزلته التامة عن المجتمع ورفضه الزواج مرة ثانية. كما أن لديه رواية عن هجر أولاده الثلاثة له بعد عمر قضاه في التعب والكدّ لأجلهم، ليشتد عودهم ويرحلوا عنه بعد وفاة والدتهم بكل قسوة. كانت الدموع تنهمر من عينيه بغزارة كل مرة يروي لي فيها عن ماضيه البائس. كنت ألعن في قرارة نفسي أبناءه واحدًا واحدًا، وأشفق عليه كثيرًا. فطيبة قلبه لا يجوز أن تجني كل هذا الحزن والتعاسة.

كان يربت على كتفي ويطلب مني أن أهدأ، وابتسامته العتيقة تزين وجهه العجوز بشكل يريح الناظرين.

تقدمت نحو ركني المفضل بجانب النافذة المطلة على الحديقة العامة عبر زجاج شفاف. جلست على طاولة الخشب القديم بجانب رفوف روايات الأدب العربي وشعر الجاهلية. نظرت من حولي أتفقد المكان، علّي أرى ظلًا لروح ثالثة في هذه القاعة، بعدنا أنا والعم رشيد، لكن لا أحد هنا غيرنا. حتى أيهم لم يحضر اليوم.

استوقفتني ذاكرتي عند اسمه قليلاً لأتذكر أن اليوم ليس الأربعاء؛ فهو يتردد إلى هنا كل مساء أربعاء. فكرت قليلاً، ثم وجدتني أتوجه إلى عمي رشيد أسأله عن رقم هاتفه. لم أعلم لماذا شعرت في قرارة نفسي بحاجة ماسّة إلى رؤيته أو الحديث معه الآن بالذات، بعد أن كنت لا أحتمل صوت إنسان منذ دقائق.

أردت مقابلة شخص هادئ الكيان، قليل الكلام لكنه هادف، لم أعلم إن كنت أريد أن أقصّ عليه همي الجديد، فاستعطافه وجعله يشعر بالشفقة من أجلي كانا آخر أمرين أريد حدوثهما. لكن ربما سألمّح له بطريقة ما، علّه ينصحني أو يلقي عليّ تعويذة ما فتنتظم أفكاري المبعثرة دفعة واحدة ويحسم قراري.

بعد أن حصلت على الرقم من العم رشيد، عدت وجلست في مكاني. ثم فكرت قليلًا في مدى غرابة الأمر؛ فكرة أنني وأيهم صديقان مقربان داخل المكتبة فقط، بينما نحن غريبان كليًّا خارجها لدرجة أن لا أحد منا يمتلك رقم هاتف الآخر. لم أكن أعلم تحديدًا سبب عدم تواصلنا في الخارج. ربما كان اختلاف جامعتينا ومناطق سكننا عاملًا قويًا ساعد في ذلك، لكنه حتمًا ليس عائقًا يمنع الأمر.

شكّلت رقمه على الشاشة ثم انتظرت إجابة من الجهة الأخرى. بعد أربع رنات تحديدًا، أتاني صوته العميق قائلًا:

ـ ألو.. مرحبًا!

ـ ألو.. هل أيهم معي؟

ـ نعم، أنا أيهم. تفضلي.. من المتحدث؟

ـ إنها دارين.. من المكتبة.

تغيرت نبرة صوته لتصبح أقل حدة، ثم استرسل:

ـ آه، دارين! نعم، كيف حالك؟ أين كنتِ كل هذا الوقت؟ لم أركِ أو أسمع منكِ منذ فترة.

قبل أن أجيبه، داهمتني لحظة إدراك على شكل سؤال: "ما الذي أفعله؟" فجأة بدت لي فكرة الاتصال بأيهم أسخف فكرة عرفتها البشرية يومًا. ما الذي اعتقدته؟ ولماذا لم أفكر في الأمر قبل الإقدام عليه؟ ما الذي توقعته منه؟ ولماذا عساه يهتم من الأساس؟ فلا شأن له بكل الذي يحدث معي، وأي نقطة هو في بحري المثير للشفقة؟

بعد أن طرحت هذه الأسئلة تباعًا على نفسي، قررت التراجع عن فكرتي البائسة والادعاء بأنني اتصلت بداعي الاطمئنان لا غير. أجبته بعد شرودي الذي جعله يعتقد أن الاتصال قد انقطع:

ـ أنا بخير، في الواقع بأفضل حال. ماذا عنك؟

ـ بخير، الحمد لله. شكرًا لسؤالك.

ـ أيهم، لقد حصلت على رقمك من العم رشيد. أردت فقط الاطمئنان عليك لأننا لم نلتقِ منذ مدة، هذا كل ما في الأمر. آسفة إن أزعجتك.

ـ لا أبدًا، لماذا ستزعجينني؟ لا شيء مهم أفعله من الأساس.

تكلمنا بعدها لمدة دقيقتين أو ثلاث عن أمور فارغة لا معنى لها قبل أن أودعه قائلة:

ـ آه، حسنًا إذًا. عليّ الذهاب. اعتنِ بنفسك، أراك قريبًا.

ـ حسنًا، وأنتِ أيضًا.

بعد أن أنهيت الاتصال، صار ضيق صدري ضيقين. كنت بحاجة ماسّة إلى شخص أقصّ عليه الهم، ولا أرجو منه سوى الاستماع. هذه طريقتي في التنفيس عن غضبي وحزني: "الكلام". البعض يريح نفسه بشلالات الدموع، والبعض يريحها بالثرثرة التي لا تنتهي، ونادرون هم الذين يكتمون الأحاسيس.

إن الدفن في الأعماق لم يكن يومًا صفتي. أنا شخص اعتاد دائمًا اللجوء إلى الآخرين. ألجأ إلى أمي، إلى أحمد، منى، وصديقاتي في الغالب. أرتمي عند أي ركن آمن. لكن هذه المرة كان عليّ استئصال عادتي تلك. اجتاحني شعور قوي بحاجتي إلى الإقلاع عنها؛ لأن المرتكز على العصا منذ الولادة، رغم سلامة قدميه، لن يسير بدونها يومًا ما إن لم يختر هو ذلك.

تناولت ورقة بيضاء وقلمًا، دون أدنى فكرة عما أريد تدوينه. أخذت فقط أرسم دوائر تتوسطها دوائر أخرى أصغر حجمًا، وأسترجع نظرات أمي وكلامها صباح هذا اليوم. لن أستوعب أبدًا سبب قرارها السريع ذاك في مسامحته على ما قام به. نعم، أفهم أنها تضحي من أجلنا، وهذا ما تفعله الأمهات منذ اللحظة الأولى التي يُنجبن فيها أولادهن. لكنه كثير، والله كثير.

الصبر على الأذى هو أسوأ أنواع الصبر، بل إنه مذلة. صرت أشفق على حال أمي بعد أن كان الغضب يتآكلني منها. إنني أحبها حبًا جمًا، ومن البديهي أن لا أرضى لها الأذى من أي كان. اعتدت أن أحب أبي بتلك الطريقة أيضًا ذات يوم، لكن الآن بإمكاني القول دون شك إن ذلك الحب قد ولى، واستبدلته بالالتزام بالحدود معه كوني ابنته لا غير. تألمت لحالي كثيرًا وأشفقت على نفسي أيضًا، ثم ابتسمت لسخرية القدر. فأنا هنا أقف بغضب من أمي التي كدت أحارب من أجل حمايتها من أذاه، بينما تسامحه هي وتعود معه كأن شيئًا لم يكن. فضلت احتمال الإهانة وبلع الأمر مع كوب كبير من التضحية.

نظرت إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى الخامسة إلا ربعًا. يبدو أنني قضيت وقتًا لا بأس به هنا، وحان وقت العودة إلى البيت. لم أكن أريد العودة أبدًا، ولست أعلم إلى أين سأذهب إن لم أفعل. أنا فقط أريد الآن أن أريح عقلي من التفكير المفرط في الأمر. نهضت من مكاني مقررة أن أعود إلى هناك، لتحترق السماء.

بعد وصولي، طرقت الباب، ففتحت لي منى بعينين متورمتين من شدة البكاء. نظرت إلي بحزن شديد يوحي بحال البيت الآن، ثم احتضنتني هامسة في أذني:

ـ أرجوكِ، لا تفتعلي مشكلة يا دارين. لننسَ الأمر ونحظى ببعض الهدوء. من فضلك يا أختي.

أغمضت عيني بشدة ثم فتحتهما دلالة على قلة حيلتي وصبري، ثم مسحت على شعرها بلطف وقلت:

ـ بكل سرور.

داخل البيت، كانت أمي تستلقي على سريرها في الغرفة التي أصبحت لها. تقدمت نحوها خافضة رأسي، لا أدري أهو من الخجل بسبب صراخي عليها صباح اليوم أم خشية انزلاق دموعي دون إذن مني فتراها. جلست بجانبها دون النظر في عينيها ثم قلت:

ـ آسفة يا أمي، لم أقصد ما قلته في الصباح.

أمسكت بيدي ثم شدتني نحوها لتحتضنني، وقالت بعطف وهي تمسح على شعري:

ـ لا تأسفي يا حبيبتي، أفهم موقفكِ، صدقيني أنا أفعل. لنضع كل الأمور التي تزعجنا جانبًا، ولنبدأ من جديد مع التغيرات التي طرأت. لا خيار لنا في هذا. صدقيني، لو وجدت خيارًا آخر يصب في مصلحتكم أنتم الثلاثة لركضت

إليه ركضًا، لكن الآن هذا هو الموجود يا عزيزتي. لا تشغلي بالك أبدًا، سنعتاد وتتحسن أوضاعنا، أعدك بذلك.

أجبتها بعد أن رفعت رأسي من على صدرها:

ـ كيف ستعيشين مع تلك؟

ـ صدقيني يا ابنتي، إنني لا أهتم لما تقوله، بعيني، هي شابة قليلة الأدب وتفتقر إلى التربية، ولن تهمني بشيء، سأتجاهلها تمامًا، كما أنني لن أمكث حيث تمكث هي... سأعد لكم طعامكم وهي لتفعل ما تشاء بطعام زوجها، ثم أعود إلى غرفتي ولا أغادرها إلا عند الحاجة، سنحتمل عدة سنوات حتى يحصل أخوكِ على عمل، ثم أعدك أنَّنا سننتقل إلى بيت جديد، ما رأيكِ؟

ابتسمت ابتسامة عريضة لجملتها الأخيرة ثم قلت:

ـ موافقة إذًا، لكن لماذا أحمد فقط؟ منى وأنا أيضًا سنحصل على عمل، وسنعيش نحن الأربعة في بيت يبعد ألف ميل عن هنا. إنه أمر يناسبني كثيرًا، ولنترك لهم البيت لينعموا به، فهو قديم على أي حال. هم الخاسرون.

ضحكت هي، وضحكت أنا، ثم عدت لأحتضنها وأفكر بجدية في الكلام الذي قلته.

بعد أن غادرت غرفتها، توجهت صوب المطبخ لأنني تلقيت الأمر من معدتي التي لم يصلها شيء منذ الصباح، كنت أهم بفتح باب الثلاجة حتى أحسست بشخص ما في الغرفة، استدرت لأرى من، فوجدتها زوجة أبي

الغالية تحدق بي نظرة لم أجد لها تفسيرًا. لم أشأ الكلام ولا حتى إطالة النظر إليها، فقط أخذت ما كنت أهمّ بأخذه وغادرت المطبخ، متجاهلة إياها وكأن عيني لا ترى هيكلها النحيل.

وهكذا أصبح الحال في الأيام المقبلة. لا أحد منا يتبادل الحديث معها أو حتى يجلس حيث تجلس هي، لدرجة أنها أصبحت لا تغادر غرفتها إلا نادرًا حتى تكاد تشعر أنّها لا تقيم في هذا البيت. جانب مني ارتاح كثيرًا لهذا الوضع، وتمنيت أن يستمر هكذا. في الواقع، لن أكذب، فقد تمنيت في ركن ما بأعماقي أن تطلب الطلاق وتتبخر من حياتنا لنعود إلى سابق عهدنا، حتى وإنني لن أسامحه يومًا على فعلته. بالمناسبة، شمله قانون التجاهل أيضًا. صرت لا أكلمه أبدًا.

وامتنعت عن النظر إليه، بل لست أقابله حتى أفعل، رغم عيشنا تحت سقف واحد، إلا أن عمله الذي يتطلب غيابه عن البيت لأيام، وعدم مغادرتي لغرفتي في الأيام التي يكون فيها هنا، كانا عاملين قويين ساعدا في ذلك.

كانت ليلة باردة من ليالي ديسمبر، انهمرت فيها الأمطار وأبت التوقف منذ عصر هذا اليوم. كانت الكهرباء قد عادت بعد ساعتين متواصلتين من الانقطاع، جعلتنا نعيش فيهما على ضوء الشُّموع الخافت. يعم هذا المنزل هدوء تام، حيث إن الجميع يختبئ تحت غطائه الدافئ ويخشى أن يطأ خارجه

فتلسعه ألسنة البرد. إلا أنا، غادرت فراشي بعد أن لففت نفسي في ثياب دافئة وغطيت شعري بقبعة شتوية من الصوف الأبيض خشية أن أصاب بنزلة برد. ثم قررت تحضير بعض الشوكولاتة الساخنة لتلائم هذا الجو وتدفئ معدتي قليلاً. آه كم أنني أعشق فصل الشتاء! صوت قطرات المطر وهي تضرب سطح الأرض بقوة يطربني، ولون السماء المعكر يغريني كثيرًا. أجد راحتي تحت غطائي وأستمتع بطعم الحساء والشوكولاتة الساخنة. بالمختصر المفيد جدًا، أنا كائن شتوي بامتياز، أفقد لمعاني تحت نجم الشَّمس وألمع تحت الغيوم بشدة.

قبل أن أبدأ بتحضير الشوكولاتة، وجدت أنه من غير اللائق أن أشرب وحدي، لذا ضاعفت الكمية وحضرت ما يكفي للجميع. بعد انتهائي، رصصت الأكواب على الصينية ثم حملتها مع الإبريق واتجهت نحو حجرة أحمد أولاً. طرقت الباب باستخدام قدمي لأن حمل الصينية أعاقني عن القرع بيدي. فتح لي ثم قفز عائدًا إلى سريره وغطى نفسه جيدًا، ثم نظر إلي وقال:

ـ ما الذي تحملينه؟ لا تقولي شوكولاتة ساخنة!

أجبته:

ـ بلى، وهو كذلك.

ـ آه يا أختاه، أنتِ نعمة من السماء، هاتيها بسرعة، داخلي يتجمد من البرد.

ـ أحمد الله ليلاً ونهارًا على امتلاكك لي، هه.

ناولته كوبًا ثم صببت له حصته وغادرته بعد أن أوصيته بألا يترك الكأس هنا ويعيدها إلى المطبخ فور انتهائه. ثم دلفت إلى حجرة أمي لأجدها تحمل كتاب القرآن الكريم تقرأ منه شيئًا. لم أرد إزعاجها، لذا تركت الكأس على المنضدة بجانبها وقلت بصوت خافت:

ـ اشربيها قبل أن تبرد يا أمي.

وغادرت بعدها. في طريقي إلى غرفتنا أنا ومنى، مررت بغرفة سيرين فلاحظت أن الباب مفتوح. لم أرد النظر، لكن فضولي غلبني فأدرت رأسي نحو غرفتها لتظهر وهي تضع رأسها بين ركبتيها متكورة وسط السرير. تبدو وكأنها تبكي أو ما شابه. سأكذب إن قلت إنني لم أشفق على حالها بعض الشيء، بالرغم من أنها يجب أن تكون آخر شخص أشعر تجاهه بشيء عدا الكره. لكن لا أعلم، فقط في تلك اللحظة رق قلبي قليلاً لوضعها. لكنني لم أفعل شيئًا، أنا فقط تابعت طريقي إلى غرفتي وكأنني لم أرها.

بعد أن دخلت الغرفة، وضعت الصينية على الطاولة بالقرب من سريري ثم ناديت منى، لكنها كانت مستغرقة في النوم، لذا جلست على فراشي بعد أن صببت كأسا كبيرة لنفسي وبدأت أفكر بما رأيته قبل قليل. لم أستطع الجلوس براحة وبدأت أحدث نفسي:

بالتأكيد إن نفسيتها انهارت بعد المدة التي أقامتها هنا، خصوصًا مع معاملة الجميع لها. أي أحد كان سينهار مكانها لا محالة. شعور أن تكون مرفوضًا وسط

مجموعة، ولكنك تبقى رغم ذلك، يشبه إلى حد كبير شعور الرضا بالإهانة. لكنها ا هي من اختارت ذلك، أليست هي؟ هي من رضت لنفسها أن تكون رقم اثنين عند رجل سبق له أن اختار رقم واحد بالفعل. كان بإمكانها التراجع عن تصرفها الطفولي قبل الإقدام على شيء كبير كالزواج، وعدم هدر وقتها مع رجل يكبرها بعشرين سنة كاملة.

إنني لا أنكر كرهي الشديد لها، خصوصًا بعد فعلتها الأخيرة تلك. لكن اليوم، لست أعلم لماذا انتابني شعور بحاجتي لمعرفة الأسباب والدوافع. سبب زواجها منه، وسبب ادعائها أن أمي هي من ضربتها، لأنني الآن نوعًا ما في حيرة من أمري، خصوصًا بعد المدة التي عاشتها هنا دون افتعال مشكلة ما أو حتى كلام زائد. كانت فقط تغلق على نفسها في غرفتها ولا تغادرها سوى لتحضير طعامها، بما أنها لا تشاركنا طعامنا... ثم تعود وتجلس في غرفتها حتى المساء لتخرج قليلاً لتشاهد التلفاز ثم تنام. ونادرًا ما كانت تغادر لزيارة أهلها. تبقى على حالها هذه حتى يأتي أبي من عمله لتنفرج أساريرها عن ابتسامات لا تنتهي وتجوال بحرية في زوايا المنزل. هي تتغير كثيرًا عند حضوره وكأنها تخشى على نفسها منا عندما لا يكون هنا، لتعود إليها قوتها بعد أسابيع من الضعف حين يأتي.

بعد أن انتهيت من كوبي، نهضت من مكاني لأعيده إلى المطبخ، وفي طريقي مررت على غرف أحمد وأمي لأخذ خاصتهما أيضًا. عندما دخلت

المطبخ، كانت هي تقف أمام الفرن "سيرين"، تقوم بشيء ما لا أعلم. فتابعت طريقي إلى المغسلة دون النظر إليها. نظراً لقرب المغسلة والفرن، وعندما مددت يدي لالتقاط سائل الغسيل، وقعت عيني بعينيها. لانصعق بمنظرها ذاك. كانت عيناها منتفختين باللون الأحمر القاتم ووجهها شاحب قد مال لونه إلى الرمادي الخفيف، وزاد هزالها بشكل ملحوظ. أما شفاهها، فبدت كأرض قاحلة متشققة، ويتصبب عرق غزير من جبينها، وشعرها على ما يبدو لم يُسرح منذ زمن. بدت مريضة جداً، بل وكأنها تحتضر. طالعتني بنظرة زادتني شفقة على شفقتي عليها. حينها تناسيت كونها زوجة أبي الحقيرة، وغاب عن ذاكرتي كمية كرهي لها. فكانت تلك أول مرة أكلمها فيها بشكل طبيعي دون تهديد أو صراخ.

نظرت إليها بينما تحاول بيأس فتح علبة الأدوية التي لم يساعدها ارتعاش يديها بها. سألتها بهدوء:

ـهل أنتِ بخير؟ تريدين مساعدة؟

استدارت نحوي بنوع من الصدمة، ثم بصوت بدا عليه الإرهاق بشكل كبير، قالت:

ـماذا؟ هل تتحدثين معي؟

ـنعم، تريدين أن أساعدك بفتحها؟

ـأجل، أرجوك، لم أعد أحتمل الوقوف أكثر من هذا.

فتحت لها العلبة وناولتها مسكنًا للآلام مع كأس من الماء. شربتها ثم همت بالخروج، لكنها بدت على وشك فقدان وعيها، لذا ساعدتها في الوصول إلى غرفتها بجعلها تتكئ على كتفي. ثم غادرت غرفتها وأنفي متحسس من الرائحة التي تفوح من المكان.

بعد أن غادرت غرفتها، لم أتوجه إلى غرفتي، بل فضلت الذهاب إلى أمي لأخبرها بما حدث. بعد طرق خفيف على الباب، دلفت إليها فوجدتها تشاهد التلفاز وتحيك شيئًا ما. جلست على طرف سريرها ثم حدثتها:

ـأمي، تعلمين، تلك مريضة جدًا.

أجابتني بعدم فهم:

ـماذا؟ من المريض؟ من تلك؟

ـسيرين، يا أمي، صادفتها في المطبخ وبدا عليها المرض الشديد. إني أخشى أن تموت فيقول الناس: قتلوها.

ـما الذي تهذين به يا ابنتي؟ لماذا سنقتلها؟ هي لم تكن بخير طوال الليلة الماضية. في الأساس، كنت أستمع إليها تتكلم خلال نومها. أظن أن حرارتها مرتفعة مما سبب لها الهلاوس. إني أشفق على حالها جدًا.

نظرت إليها، ثم التقطت إحدى كرات الصوف التي تحيك منها، ثم قلت لها:

ـوأنا أيضًا أشفق عليها، بالرغم من كل ما بيننا، إلا أنها تبقى إنسانًا في النهاية.

ـدارين يا ابنتي، ما رأيك أن تحضري لها شيئًا لتأكله؟ سنكسب بها أجرًا، كما أنها ستستمر في الضعف إن لم يدخل الطعام جسدها، وسيقتلها الجوع إن لم يفعل المرض.

ـكنت سأقترح عليك نفس الفكرة، سبقتِني في قولها. معك حق، ستموت إن لم تأكل شيئًا. ماذا نفعل؟ ربما ابتلانا الله بها لأنه يحبنا. هيا، سأحضر لها حساء الدجاج، ربما سيفيدها قليلاً، وأجري على الله.

ـأحسنتِ يا عزيزتي، هيا قومي إلى المطبخ، أسرعي.

بعد أن خرجت من عند أمي، توجهت إلى المطبخ وحضرت لها طعامًا لتأكله، وأحضرت أيضًا بعض علب الأدوية المتوفرة لدينا في المنزل. بعضها لتخفيض الحرارة والبعض الآخر مسكنات للآلام، ثم وضعت الكل في صينية

وحملتها إلى غرفتها. بعد أن دخلت، وجدتها تستلقي على ظهرها وتتجمد بردًا لأن الغطاء كان مرميًا على الأرض. ناديتها لتستفيق:

ـهيه، أنتِ، استيقظي.

إلهي، أتمنى ألا تكون قد فارقت الحياة. لمست رقبتها النحيلة، أتحسس نبضات قلبها فوجدته يخفق. حمدت الله كثيرًا، ثم هززتها بيدي لتفتح عينيها المرهقتين أخيرًا بعد مدة من المناداة. أجابتني بصوت متثاقل:

ـماء، أريد بعضًا من الماء.

كنت قد أحضرت كوبًا لها لتشربه مع الدواء فناولتها إياه، لكنها لم ولن تستطيع حمل الكأس حتى. لذا وضعت يدي تحت رقبتها ورفعتها، ثم وضعت الكأس على شفتيها وسقيتها حتى ارتوت. حين شربت، فتحت عينيها بشكل كامل ثم نظرت إلي وكأنها استعادت وعيها للتو وقالت:

ـماذا حصل؟ هل هناك شيء؟

أجبتها:

ـلا، يا سيدتي، أنتِ فقط أغشي عليكِ من شدة الجوع. اعتدلي في جلستك وتناولي الحساء قبل أن يبرد. ستعوضين الطاقة التي فقدتيها، ثم اشربي الأدوية بعد الطعام، وبالشفاء إن شاء الله.

أخبرتها بهذا، ثم غادرت غرفتها دون انتظار رد منها، متوجهة نحو غرفتي بعد أن تمنيت لأمي وأحمد ليلة سعيدة.

تلك الليلة استيقظت فجأة من النوم لأجد حلقي قد جفَّ وكانه صحراء الجزائر. بحثت عن قطرة ماء في الغرفة، لكنني لم أجد. لذا ارتديت معطفي الخفيف وخرجت نحو المطبخ. في طريقي، وجدت أن مصباح غرفة أمي مضاء. نظرت إلى ساعة هاتفي فوجدتها الثالثة إلا ربع فجرًا. فكرت في أنها تصلي، لكنه ليس موعد الصلاة بعد. لذا دلفت إلى غرفتها، لكنني لم أجدها بمكانها. ففكرت بأنها في الحمام، فذهبت لتتفقد المكان، لكن الأضواء كانت منطفئة هناك. احترت في أمري، قبل أن تلدغني فكرة أنها في غرفة سيرين

نتفقدها. لذا اتجهت وفتحت الباب قليلاً الذي لم يكن موصدًا من الأساس، لتظهر لي أمي هناك وقد أحضرت كرسيًا ما وجلست بجانب سيرين، بينما تعصر قطعة قماش، كما يبدو، بللتها بالماء البارد وتضعها على جبينها ثم تقرأ عليها بصوت خافت من القرآن الذي تحمله بيدها.

وقفت أراقبها لبضع دقائق دون أن أتعمَّد إحداث أي صوت، فقط راقبتها، ثم عدت إلى غرفتي وفكرت كثيرًا في الأمر.

آه، كم أن لأمي قلبًا كبيرًا، كبيرًا لدرجة أنه يسع أحبائها وأعداءها أيضًا. لاحظت أيضًا كم أنني أختلف عن أمي. فحين حضرت لها الحساء كان بدافع الإنسانية لا أكثر. فلو لم تقدر على الأكل، ما كنت لأطعمها أبدًا. ورغم كل شيء، مساعدتي لها لا تعني مسامحتي، أنا أكره بشكل سيئ وأحب بشكل سيئ. أبالغ في كل الأمور على عكس والدتي، بعد كل الذي عاشته بسببها، تخلى عنها زوجها من أجلها، وقام بضربها، وإهانتها دون اكتراث بسببها أيضًا، وها هي الآن تعتني بها عند مرضها كإحدى بناتها دون احتساب كل الذي حدث من قبل معها. أخبروني مما تصنع الأمهات عدا الحنية والطيبة؟!

استيقظت على صوت المنبه الصاخب بعد أن غفوت دون شعور. كان ذلك اليوم أول أيام الامتحانات الفصلية التي لم أكن قد حضرت نفسي لها كما يبدو. فتحت عيني بصعوبة بالغة ثم نظرت إلى منى، حاسدة إياها على وضعها، لأن الجامعة أطلقت سراحها منذ شهر تقريبًا لتصبح حرة طليقة من

كل الإزعاجات السمعية والبصرية التي بها. ارتديت جواربي الطويلة لأن قدمي كانتا متجمدتين كليًّا، ثمَّ خرجت إلى الحمام لأغتسل علَّني أستفيق من إغمائي. فانصدمت من درجة برودة الماء بحيث تجرَّدت من الشُّعور بخدِّي وشفتيّ. عدت وارتديت ثيابي بسرعة، سروال من الجينز الأسود مع قميص قطني. كنت قد عقدت شعري على شكل ذيل حصان، لكنَّني قرَّرت فرده وارتداء قبَّعة صوفيَّة لاحقًا، ثمَّ خرجت إلى المطبخ.

وجدت أمي منهمكة في تحضير الإفطار، حيَّيتها بصباح الخير، ثمَّ جلست على كرسي بجانب الطَّاولة. وضعت لي الطعام الذي كان عبارة عن كأس من الحليب وصحن من كعك الزّنجبيل إلى جانبهما صحن من مربى الفراولة وبعض الخبز وكأس من عصير البرتقال. آه، يا ليت كلّ الصَّباحات كصباح أيَّام الامتحانات! حشوت كعكة زنجبيل في فمي، ثمَّ قلت مكملةً حديثي مع أمي:

ـلن يأتي أحمد؟

ـلا، يا ابنتي، سيجري امتحاناته في الفترة المسائيَّة.

ـآه، حسنًا، إذًا. ابتلعت طعامي ثمّ أكملت.

ـوكيف حال سيرين؟

قالت بعد أن جلست أمامي على الكرسي المجاور:

ـإنها أفضل حالًا الآن، انخفضت درجة حرارتها.

ـشاهدتكِ تجلسين بجانبها ليلة أمس، هل سهرتِ الليل كلّه معها؟

ـنعم والله، لم يغمض لي جفن حتَّى الآن. ماذا عساي أفعل يا ابنتي، لم أقدر على تركها في تلك الحالة والتّظاهر بعدم سماع آهاتها.

ـمعكِ حق، أوافقكِ الرَّأي. صواب ما فعلتِ، لا عليك، أجركِ عند الله إن شاء الله.

ـإن شاء الله يا عزيزتي. هيا إذا، اكمِلي وانهضي ستفوتك الحافلة وستتأخرين، هيا.

نهضت بعد أن ودعتها، ثم ارتديت معطفي الكشمير وحذائي الشتوي وغادرت البيت. خارجًا كان أقل ما يمكن قوله عن ذلك الجو هو كلمة "ساحر"! على الأقل من وجهة نظري أنا، فغالبية الناس يشعرون بالاكتئاب في الجو الغائم، إلا أنا. كانت الشمس تظهر قليلاً خلف كل ذلك السحاب وكأنها فتيل شمعة ضعيف، أما الطرق فابتلت بفعل الأمطار الغزيرة التي انهمرت ليلة أمس لتظهر بشكل لامع. لامست إحدى ورود الجوري التي تنمو في حديقة جارنا، التي بدت وكأنها خرجت للتو من حمام بارد، قطفت واحدة منها ثم مضيت في طريقي والهواء البارد يلفح خدي ويحاول انتزاع قبعتي من على رأسي دون جدوى.

بعد جولة لا تخلو من الاستمتاع بجو ديسمبري بامتياز، ختمت برحلة مدتها ربع ساعة بالحافلة المكتظة بالطلبة. انتهى بي الأمر في قاعة الامتحانات

أحدق بأسئلة مقياس ما غير مقتنعة بأنني درست يومًا ما يشابهها في منهاجي السنوي. نظرت إليها ونظرت هي لي، قرأتها وكررتها. حاولت الاستنجاد بعقلي المغطى بالغبار عله ينفض عنه غباره قليلاً وينقذني من مأزقي هذا، لكن لا حياة لمن تنادي. رفعت رأسي أتفحص الجميع فوجدت الرؤوس كلها منخفضة تدون الأشياء. تبا، ماذا يكتبون؟ واصلت محاولتي البائسة مع تلك الأسطر الإنجليزية التي بدت إغريقية، وأخيرًا، بعد تحديق طال، قررت أنا ونفاد صبري الانسحاب من هذه المنافسة والرضى بالهزيمة للمرة الثانية لهذا اليوم، فالهزيمة الأولى كانت من نصيب مقياس الشعر. يبدو أن لا حظ لي اليوم بالمعارك الورقية. سلمت ورقتي نظيفة كما أعطت لي، غير أنني زينتها بحروف اسمي باللغة اللاتينية في بدايتها، وكلي ثقة بأن تلك الورقة ستشتمني لا محالة لو كان بها لسان ينطق. سلمتها ثم غادرت القاعة أجر أذيال خيبتي التي لا هي خيبة ولا أمر آخر، لأنني حصدت اللاشيء بعد دراستي للاشيء، الأمر عادل.

عند نزولي الدرج، علت نغمة بطني توحي بحاجتها للطعام بعد جولة من عصر المخ المتعب. لذا توجهت نحو كافيتيريا الجامعة لآكل شيئًا ما. عند وصولي كانت القاعة تكتظ بالبشر، كل يثرثر في عالمه الخاص. كانت أصواتهم تشبه صوت النحل في الخلية إلى حد بعيد، غير أن البشر أكثر إزعاجًا! اشتريت علبة عصير وشطيرة لحم، وانزويت على طاولة بعيدة عنهم كثيرًا لأعيش

بسلام طيلة ساعة ونصف قبل البدء بمعركة ثانية والتي أرجو أن تكون أخف من السابقتين.

قبل أن أبتلع المضغة الأولى من طعامي، أتى شخصان وجلسا على الطاولة التي تقابلني: شاب وفتاة. وكما هو واضح حتى للكفيف، فإنهما يخوضان علاقة معًا، فالابتسامات الحالمة التي تصدر عن الفتاة تشي بأمرهما بشكل كبير، وارتباكه عند تلامس كتفيهما عند الجلوس دليل على أن العلاقة لا تزال في بداياتها، وعلى إعجابهما الشديد ببعضهما البعض. بعد جلوسهما، استغرقت في الأمرين: تناول الطعام ومراقبتهما دون قصد مني. أنا فقط استرجعت ذكرى شخص ما عند رؤيتي لهما بهذا الشكل. استرجعت خيال نفسي القديمة التي كانت قد ابتسمت نفس الابتسامات وطالعت شخصًا ما بنفس اللمعة ونفس الحماس قبل أربعة سنوات ونصف. نعم، تشبهني إلى حد كبير، فأنا مررت بنفس الارتباك الغبي وضحكت على نفس التفاهات التي تضحك عليها هي الآن، معتقدة أنها أهم الأشياء التي لا يكتمل يومي دونها. صحيح أنني لا أسمع ما يقولان، لكن يمكنني التنبؤ بكلامهما بثقة كبيرة، فلا شكّ في أنّه نفس الهراء يتكرر في كلّ بداية، وحتما أن النهايات تتطابق.

يتغيّر منظور الفتاة فجأة، وتنتقل من أنثى تتجاوز كل المتحرشين والمغازلين وتمقت الرجال، إلى أنثى ترى في شخص واحد ما لم تره في الآلاف. الشخص الوحيد الذي يستحق، المتفهم والحنون الذي يرفعها عاليًا عن الأرض حتى

يتجاوز بها الغيوم، ثم يتوقف قليلاً ليرميها من ذاك الارتفاع إلى الطبقة الأولى من قشرة الأرض. ليتركها بقسوة، تعيش أيام حيرتها ونحيبها وحيدة، كيتيمة تخلت عنها والدة زانية ورحلت عمدًا لأنها جهلت إلى أي رجل تعود. غير أن الوضع هنا يختلف قليلاً، فهو لن يرحل، هو لا يرحل أبدًا حتى تسمح هي له بذلك، بل يعود في كل مرة.

ليرمم جراحًا كان هو السبب فيها، يرمم جراحًا ويخلق أخرى في أماكن ثانية حتى يحين اليوم الذي تنفد فيه الأماكن من جسدها. والراغبات في النجاة فقط هن من يتوقفن عن منحه ما يريد. هي تدرك في تلك اللحظة، اللحظة التي تتخلى فيها عنه وعن عقابه لها على خطأ كان فيه هو السبب من البداية، وتختار نفسها بعد أن اختارته هو لزمن طويل، تدرك إدراكًا مؤلمًا أنَّ الله لا يحرم شيئًا عبثًا! الله يحرم عنَّا الذي يؤذينا، لكن النَّفس تهوى التجربة وتعشق البرهان، تريد الخوض رغم التحذيرات لتنتهي إلى الحقيقة التي فضلت هي عدم النظر إليها رغم وضوحها الكبير.

مع انقضاء ربع ساعة أو أكثر، كنت قد أنهيت طعامي وكان الثنائي قد غادرا المكان تاركين دارين المشتتة النفس تحاول بيأس مراجعة بعض السطور في أوراقها التي قد أفترشت بها الطاولة دون جدوى. وبعد خمس دقائق تحديدًا، مللت الأمر وقررت إعادة الأوراق إلى الحقيبة ومغادرة المكان لأن الضجيج قد تضاعف مرتين. عندما هممت بالنهوض، تفاجأت

بشخص ما يتوجَّه نحوي وابتسامة سخيفة بعض الشَّيء تعلو تقاسيم وجهه، كان ذاك الشّخص هو "أيهم" صديق المكتبة. ابتسمت أنا بدوري لرؤيته هنا تحديدًا وفي هذا الوقت، ثم تقدمت نحوه وعلامة استفهام عملاقة تعلو تقاسيمي أنا التي لا شك في أنه لاحظها.

قلت بنبرة عالية لا تخلو من الدهشة:

ـأيهم هنا!

أجابني بنفس النغمة:

ـبشحمه ولحمه.

تصافحنا ثم جلسنا على نفس الطاولة التي كنت على وشك مغادرتها منذ ثوان مضت، ثم نظرت إليه ملاحظة كم أن شكله متغير عن آخر مرة التقيت فيه، والتي كانت منذ عدة أشهر. كان قد ربى ذقنًا واضحة وأطال شعره قليلًا مما ساهم في اختلاف ملامحه كثيرًا لدرجة تجعلك بالكاد تتعرف عليه، كما أنه بدا مرحًا على غير العادة. قاطعت ابتسامتي بسؤالي له عن سبب قدومه إلى جامعتنا وعن ما إذا كان عثوره عليَّ بمحض الصدفة أم أنه تعمد ذلك، فأجابني أنّه حضر من أجل بعض الوثائق التي هو بحاجة ماسَّة إليها في مذكِّرة تخرّجه، وأنّه كان يخطّط للبحث عني ومقابلتي فور انتهائه من عمله. ولحسن حظّه أنّ الصُّدفة وفرت عليه عناء البحث ليلتقي بي هنا خلال اقتنائه لغذائه.

رحبت به كثيرًا وبعد عدة أحاديث قصيرة، اقترحت عليه أن آخذَه في جولة حول جامعتنا ليتعرف على أركانها طالما أن وقت الراحة لم ينفذ بعد، فوافق بسعادة بعد أن أكدت له بأنه أمر يسعدني أنا الأخرى ولا إزعاج فيه على الإطلاق.

خرجنا بعدها نتجاوز الحشد المتجمع على مكتب الحساب إلى الخارج متجهين نحو حديقة الجامعة الأساسية حيث لا مكان أجمل أو أهدأ منها لإحضار الزوار. أبدى إعجابه الشديد بخضرة المكان ووفرة الأشجار وكافة أنواع الأزهار والنباتات به، معيبا جامعته لعدم امتلاكها لهكذا حديقة. تجولنا بها كثيرًا وتناولنا في أحاديثنا عدة مواضيع شائعة، لا شيء لافتًا فيها، كطول فترة الامتحانات والفرق الجلي بين جامعتنا وجامعتهم سواء في النظام أو المظهر. وتخالفنا في الرأي حول ضرورة غرس أشجار أكثر من عدمها، فاقترحت أنا أمر الغرس بداعي توفير الظل في الأيام المشمسة، بينما خالفني هو بادعائه أن كثرة النباتات تجعل من المكان حديقة عمومية أكثر منها جامعة ومكانًا جادًّا لطلب العلم والعمل. لكننا لم نتمادَ في النقاش وانهيناه بمجرد ظهور علامات عدم التوافق بيننا بداعي الاحترام والرسمية.

بعد جولة بها، اقترحت أنا الجلوس لبعض الوقت على أحد المقاعد تحت شجرة الصنوبر الكبيرة لأن التعب بدأ يتسلل نحو قدمي. بعدها، رحت أنا أحدق قليلاً بالغيوم التي تسحب بعضها بعضًا نحو مكان ما مفسحة المجال

لأشعة الشمس علها تعبر قليلاً وتزيل الصقيع عن الأرض وتنشر دفأها لبعض الوقت، ثم لاحظت على الشجرة المقابلة لنا أنثى سنجاب وقد انهمكت في حمل صغارها واحدًا تلو الآخر من على غصن الشجرة إلى بيتها الصغير بالداخل. نكرت أيهم بمرفقي لكي يرى ما أشاهده، فانتفض قليلاً ثم أخذ ينظر حيث أنظر، وقال:

ـإنها تحاول حمايتهم من البرد، إنها أم بالنهاية.

اخفضت بصري إلى الأسفل وكأن كلامه ذكرني بأم ما. أم تفعل المثل كأنثى السنجاب. ثم قلت:

ـالأمهات يتشابهن، أليس كذلك؟

قال: بلى، يتشابهن بشدة. ثم صمت قليلاً ونظر نحوي وسألني:

ـدارين، هل أنتِ بخير؟

استغربت سؤاله كثيرًا، لكنني أجبتُه:

ـالحمد لله، وأنت؟ كيف حالك؟

ـأنا لا أسألك عن حالك الآن، ما أقصده هو أحوالك عمومًا، كيف تسير حياتك حاليًا؟ هل كل شيء على ما يرام؟

أمعنت النظر فيه قليلاً حتى إنني لاحظت لأول مرة بأن له عيونًا باللون الأخضر الغامق، تشبه عينيَّ لدرجة كبيرة. ثم أفقت من شرودي وقلت:

ـ كل شيء بخير، ما سبب سؤالك هذا؟

أزاح بناظره نحو الجهة الأخرى قليلاً ثم نظر إلى الأسفل وقال بعد أن رفع رأسه:

ـلست متأكدًا من كلامي، لكنك متغيرة بعض الشيء، أو ربما كثيرًا. ستقولين إن معرفتي بك ليست جيدة كفاية، لذلك فأنا ألاحظ أشياء لا وجود لها، لكن الأمر ليس هكذا. فأنا وأنت صديقان منذ أشهر، وجلساتي السابقة معك في المكتبة تختلف بشدة عن جلسة اليوم. تغيّرتِ يا دارين، صوتك لا حماس فيه، ونظراتك جافة وباردة، وكأن شيئًا ما انطفأ داخل عينيك، كما أن الهالات السوداء التي تحيطهما دليل قاطع على قلة أو ربما انعدام نومك بالليل. وطيلة جولتنا كنتِ تجيبين على أسئلتي ولا تطرحين الأسئلة كعادتك. حتى طريقة نقاشك اختلفت. كما أنني لن أخفي عليك وسأقول إن اتصالك بي المرة الماضية أثار في نفسي شكوكًا تقول بأنك لم تكوني بخير، لأن صوتك بدا مرتجفًا قليلاً. فكرت بعد أن أغلقت السماعة في معاودة الاتصال بك، لكنني اعتبرتُ أن ذلك سيكون وقاحة، لذا عزفت عن قراري والتزمت حدودي. لكن غيابك الذي استمر وقتًا طويلاً عن المكتبة أثار قلقي كثيرًا. في النهاية، أنا افتقدتُ زميلة في القراءة ومنافسة شرسة في الكتابة، لذلك قررتُ المجيء لرؤيتك بذريعة مذكرتي، والاطمئنان عن حالك، وهذا كان سبب سؤالي السابق!

قال كلامه ثم لبث يناظرني وينتظر إجابة ما. لم أعلم تحديدًا ما كان عليَّ قوله، لكنني شعرت برغبة جامحة في البوح له عن كل شعور يسكنني، وعن كل خيبة، وعن كل لحظة حزن عشتها طيلة الأشهر السابقة. لم أكن أهتم إن كان هذا سيشعره بالشفقة عليّ. أردتُ أن أثبت شكوكه وأفسرها له وأحكيها عليه لأستريح كما هو شائع. فالجميع يقول بأن البوح يساعد على التعافي بشكل كبير. لذا قررتُ أن أتكلم، لأول مرة، وبعد الكثير قررتُ ترجمة الأحداث التي تزعجني لشخص لاحظ الفرق! شخص انتبه إلى المخبأ بعناية فائقة وتساءل عن ماهيته.

أخذتُ نفسًا عميقًا وأسندت ظهري إلى الكرسي ثم قلت:

ـالأمور ليست بخير تمامًا. في الحقيقة، لا شيء بخير. أنا منذ مدة اكتشفتُ أن أبي يخون أمي، وسأترك لك مهمة تخيل مدى فظاعة الشعور. أنا على يقين أنَّك تدرك مدى قسوة الغدر كما أدركه أنا بالضبط. لذا تخيل فتاة اكتشفت أن والدها، أبيها، والرجل القدوة، يرتكب فضيحة كهذه، وتكون هي أول العارفين بالقصة. هل تخيلت الشعور؟ حسنًا، تخيل الآن أن تلك الفتاة اضطرت إلى تحاشي النظر في عيني والدتها طيلة أيام، لأنها تخشى أن يتسرب الكلام من عينيها وتؤذيها بشكل ما. هي لم ترد الإفصاح عما علمته، فكيف لها ذلك؟ وهل فضح أخطاء الأحباب من عادات المحب؟ هي انتظرت ودعت أن يعتزل ذنبه ويتوب إلى الخالق، وهي ستنسى الأمر كما سيفعل هو. لكن

الرياح جرت بما لا تشتهي السفن كما هي تفعل على الدوام، وانتهى عذاب ضمير الفتاة لأنها أخفت الأمر بزواج الأب بالفتاة التي خان زوجته معها، وإحضارها إلى البيت وفرضها على الجميع. ومنذ ذلك الوقت، ولا شيء يشبه شيئًا في عائلتي. أبي صار رجلًا آخر، رجلًا عديم المسؤولية، وقليل الكلام مع أي منا، وأمي تحاول بجهد إخفاء ضعفها وحزنها الشديد وراء أعمال المنزل، محاولة بجهد تجاهل الضرة التي تقبع في الغرفة المجاورة لها. أما أخي، فالله وحده من يعلم ما الذي يفكر فيه عند شروده المستمر وهدوئه المريب. أحمد ثرثار لا يكتفي بالكلام، فأي الأسباب جعلته يعتزل رفقة إخوته والجلوس معهم؟ لا أعلم، لا أحد يعرف أي حزن وأي ثقل قلب يشعر به. أظن أنّ أختي هي الشخص الأسعد بيننا، لأنّها منهمكة في التّحضير لحفل زفافها القريب، باذلة أقصى الجهود في التّظاهر أنّ كل شيء على ما يرام. وهو لا مر يسعدني كثيرًا، فعلى الأقل لا يزال بإمكان أحد منا أن يحلم.ـ

وبما أنك مهتم بمعرفة كافة التفاصيل، فلتعلم إذاً بأن هناك ما يشغل بالي غير أوضاع عائلتي، فأوضاعي العاطفية ليست على ما يرام كذلك، وهو لأمر ليس بالجديد، لكنه أصبح يقلقني أو لنقل يتعبني في بعض الأحيان. أنا ككل فتاة، لم تسعفني مراهقتي وعقلي غير المكتمل النمو، وأوقعاني في حبال شخص لعوب، أو الشخص غير المناسب بوصف أكثر دقة، ذلك النوع الذي يدمر بك كل خلية مسؤولة عن إنتاج السعادة، ويستبدلها بخلايا التعلق المرضي

الصعب الشفاء. لكن لنقل بأنني كنت بالقوة الكافية فطردته من حياتي إلى الخارج دون عودة، ودون إلقاء نظرة واحدة إلى الخلف، لأبدأ في رحلة علاجي المكثف من سمّه النفاث، حيث استغرقتني الرحلة أربع سنوات كاملة. وبعد آخر قطرة ترياق تناولتها، جرت الرياح كعادتها وعاد المدمر ليصب في شرايبني قارورتين من السم بدل واحدة، بعودته مجددًا دون إذن كما يفعل دائمًا. لذا نعم، أظن بأن لا شيء بخير ولن يصبح كذلك بسهولة.

بعد أن أنهيت كلامي، نظرت إليه فوجدته متسمّرًا على الكرسي، ويطالعني بنظرات لم أستطع التمييز إن كانت نظرات شفقة أم دهشة. زفر زفرة طويلة ثم نظر إلي وقال:

ـتعيشين الكثير يا فتاة!

قلتُ:

ـحتمًا هو ذلك!

بعدها انحنى إلى الأمام ثم استقام، وقد التقط حبة صنوبر من على الأرض، وأخذ يقلبها بين يديه الكبيرتين كأنه يبحث عن شيء أضاعه لسنوات بها، ثم تركها والتفت إلي قائلاً بنبرة لا تخلو من الجدية:

ـما الحياة الدنيا إلا تجارب قاسية يا دارين، هي تجارب وابتلاءات وامتحانات يضعها الخالق في طريق كل منا، وبأشكال مختلفة، ليرى مدى تحمل وصبر عباده. وفي الغالب، هو يبتلي الإنسان في الأقربين إليه لأنه عز

وجل يعلم أن الامتحان سيكون أصعب مع من نحب. والله إذا أحب عبداً ابتلاه، لذا إياكِ والظن بأن همومك هذه نوع من العقاب على أمور قمتِ بها في السابق، بل هي مجرد اختبارات يتوقع منكِ الله الصبر عليها والتوكل عليه، لذا لا تشغلي بالك واستريحي، فهي مدبرة لا شك.

أجبته باستسلام وقناعة تامة عن ما يقوله:

ـمعك حق في كل ما تقول.

ثم استرسل متحدثًا:

أبسط مثال عن صاحب الابتلاءات يجلس بجوارك حاليًا.. قالها مشيرًا نحو نفسه بذراعيه، وابتسامة عريضة تجتاح وجهه، لكنه تجاهل كلامه هذا ولم يكمله، وانتقل إلى كلام آخر:

ـفلتنظري إلى الجانب المشرق يا دارين، لا شيء يفوق المرض قسوة على الشخص، والحمد لله ليس في عائلتك مريض ولا طريح فراش، فلتسألي الله أن يحنن القلوب على بعضها، هذا ما سيحل مشكلتك بلا شك.

قلت له:

ـلما نعتت نفسك بصاحب الابتلاءات؟ هل في عائلتك شخص مريض؟

تنهد قليلاً ثم قال:

ـللأسف نعم، تعيش أمي أيامها معتمدة على أربع عجلات لتنقلها بين غرف البيت، وهي على حالتها هذه منذ سنوات طويلة.

اتسعت عيناي من الدهشة والأسف لسماع ما يقوله:

ـآسفة جدًا، لم يكن لي علم بهذا! كيف حصل معها هذا الأمر الفظيع؟

ـحادث سير لعين، فقدتُ به أبي في سن العاشرة، وبالكاد استطاعوا إنقاذ أمي.

كان يتكلم محاولًا تغطية حزنه البالغ بابتسامة مصطنعة إلى حد كبير.

بعدها أدركتُ بأن ما أعيشه أنا يعتبر قليلًا جدًا أمام ما يعيشه هو. أحسستُ بألمه وعجزه، واشفقتُ على حاله كثيرًا بعد أن كنت أخشى أن يشفق هو عليّ. مسحتُ على كتفه برفق ثم قلت:

ـهل هناك أمل في أن تشفى والدتك؟

قال بيأس تام:

ـاثنان بالمئة، لنقل لا أمل على الإطلاق.

حزنتُ أكثر لسماعي ذلك، لكنني لم أشأ الدخول في جو من الاكتئاب ولا أن أكون أنا سبب دخوله هو، لذا حاولتُ بمرح مزيف أن أغير الموضوع، لكنني تذكرتُ شيئًا كنت قد نسيته.

ـأيهم الامتحان! يا إلهي، لقد نسيت امتحاني تمامًا!

أجابني بعد أن اتسعت حدقتاه:

ـتبا، لقد نسينا أمره.

نظرتُ إلى ساعة هاتفي لأجدها وقد تجاوزت الواحدة بربع ساعة، أي أن الامتحان انطلق قبل ربع ساعة. نهضتُ من مكاني بهلع، وتبعني أيهم بهلع مماثل سببه الشعور بالذنب لاعتقاده بأنه من ألهاني، لكنني أكدت له بأنه لا مشكلة على الإطلاق، وأنني أنا من تماديت في الحديث حتى نفذ الوقت مني. وبعد هرولة سريعة من الحديقة العامة إلى قاعة الامتحانات، ودعته بسرعة، واتفقنا على أن نجدد لقائنا هذا في يوم آخر، يوم لا ينفذ فيه الوقت من أحد.

بعد جولة ثانية من الحرب، خرجت هذه المرة منتصرة. على الأقل أفلحتُ في مقياس ما عله ينقذ عامي الدراسي من الانهيار. فضلتُ ذلك المساء أن أسير إلى البيت وسط ذلك الجو الرومانسي بدل استقلال الحافلة المزعجة. سرتُ على الأرض المبللة حتى ابتل حذائي هو الآخر، وتأملتُ بحب ألوان السماء التي اختلفت درجاتها من الرمادي الداكن والفاتح إلى الأزرق الباهت. وفكرتُ كثيرًا بحياتي ومستقبلي. خططتُ لأن أعمل في مكتب للترجمة بعد تخرجي من الجامعة، وربما سأجد زوجًا صالحًا، لذا سأتزوج فور عثوري على عمل. سأنجب ولدًا وبنتًا إن رزقني الله، سأسمي الفتى أيوب، واسم الفتاة سيكون ملكًا، وسنعيش جميعًا في سعادة تامة بعيدًا عن هذا المكان. ستعيش أمي معي أيضًا، وسنترك لهما ذلك البيت اللعين ليسعدا به أو ليذهبا إلى الجحيم. سأختار بيتًا على أطراف الغابة، حيث سأستيقظ كل صباح على أنغام الطيور السعيدة، وأنعم في المساء بهدوء تام دون طنين البشر...

وبالطبع، ستسهل عليَّ السيارة الوصول إلى مكان عملي أينما كان. وبعد العديد من التخيلات، وعدت نفسي بأنني سأنظر في المرآة يومًا ما، وأقول: "وعدتكِ وأوفيتُ يا نفسي".

بعد انتهاء الطريق المثير للاهتمام، وجدت نفسي أمام عتبة منزلي كما هو حالي دائمًا، أنتهي أنا كل مساء إلى النقطة التي أغادر منها صباحًا، ولا نقطة بعدها تأويني ومن أحب، سواء رضيت بالأمر أم لم أفعل. وقفت عندها أرتعش مبتلة بالكامل، وعلى وشك الإصابة بنزلة برد إن طال بي الوقوف أكثر من هذا بعد أن تأخروا في فتح الباب. وأخيرًا، بعد عدة محاولات كللت بالنجاح، فُتح الباب من قبل شخص ليس أمي كعادتها، بل كانت سيرين هي من تقف خلف الباب. دهشت قليلاً لرؤيتها تقف بكامل قواها بعد أن كنت تركتها طريحة الفراش، ولا قوة لها لتقف على قدميها ليلة أمس. أيعقل أن تتعافى بهذه السرعة؟! لكنني لم أكلمها، بل اكتفيت بالدخول وإغلاق الباب بعد أن انصرفت هي.

أغلقت الباب، ونزعت حذائي لأنقذ قدمي العائمتين في المياه، ومعطفي الذي تضاعف وزنه لما شربه من مطر أيضًا، ثم توجهت نحو غرفتي لأغير بقية ثيابي، وأرجع لأتفقد أمي.

بعد أن انتهيت، دلفت لأطرق باب أمي، لكنني وجدته مفتوحًا، لذا دخلت مباشرة لأجدها نائمة. ناديتها بصوت خافت:

ـأمي، أمي، هل أنتِ نائمة؟

أجابتني بعدها بالنفي ليتبين بأنها تغمض عينيها فقط، لذا تقدمت نحوها وجلست على طرف سريرها، ونظرت إليها وقلت:

ـأمي، هل أنت بخير؟ لماذا لم تفتحي أنتِ الباب؟ وكيف شفيت سيرين بتلك السرعة؟ هل ألقيتِ عليها تعويذة ما؟

اعتدلت في جلستها بمنظرها اللطيف ذاك، حيث تبعثر شعرها الكستنائي القصير حول وجهها، وآثار نوم خفيفة بدت عليها. بعدها لفت اللحاف عليها جيدًا لتمنع تسرب الهواء البارد إلى الداخل، ثم أجابتني:

ـسقيتها بعض الليمون والعسل، وبضعة أدوية لخفض الحرارة، لم يكن بها شيء خطير، لذا تعافت بمجرد نزول درجة الحرارة. لا تستغربي يا ابنتي.

هززتُ رأسي بالإيجاب علامة على الفهم، ثم قلت لها:

ـأمي، دعيني أخبركِ بشيء فكرتُ به صباح هذا اليوم.

ـها، قولي، ماذا هو؟

ـوالله لا تغضبي مني ولا تأخذي كلامي على محمل الجد، فأنا أقول فقط.

ـلن أغضب، قولي ما عندكِ، لا تقلقي.

ـحسنًا. أنا قلت في نفسي بعد أن فكرتُ مطولًا في وضعنا مع تلك الفتاة (أقصد سيرين) بأنها لا تدرك ما تفعله، كما أنني لا أعتقد بأنها تحمل ضغينة تمامًا تجاهنا. أعتقد فقط بأنها تدافع عما تظنه الصواب! كما أن قبولها الزواج

من شخص متزوج ويكبرها بعدة سنوات، وعلى علم تمامًا بوضعه، هذا شيء يدعو إلى الشك قليلاً. أتظنين بأنها كانت مجبرة؟ أم أنها فقط غبية؟

نظرت إلي باستغراب لما أقوله، ثم أجابتني:

ـلماذا تفكرين بهذا يا دارين؟ ألم نتفق على القبول بالأشياء كما هي، وتجنب مناقشة مثل هذه الأمور؟

قلتُ وأنا منفعلة:

ـبلى، اتفقنا يا أمي، وأنا لا أقول لنناقش الأمر. أنا فقط أعطي ملاحظة جانبية خطرت ببالي فجأة بعد ما حدث ليلة أمس. هذا كل ما في الأمر.

سكتت قليلاً ثم قالت:

ـ حسنًا، لن أنكر الأمر. أنا أيضًا فكرتُ فيه. فدون احتساب المرة الماضية، فهي لم تفتعل مشكلة أخرى إطلاقًا، ولم تحاول ولو لمرة أن تزعج أحدًا منا. حتى إنني شعرتُ ببعض الندم في عينيها لما فعلته.

أجبتها أنا:

ـهذا ما أقصده تمامًا.

ـلكن هذا لا يغير فكرة أنها ضرتي!

قالت جملتها بحزن بالغ، اتضح في عينيها. ثم غيرت الموضوع وصارت تتحدث عن الطقس، وتسألني عن يومي، كيف كان. وأنا لم أرد متابعة موضوعنا السابق، وأكملت معها حديث الطقس، وكلي يقين بأن شيئًا في قلبها لا يكف عن التألم لوضعها هذا.

بعد حديث خفيف، غادرتها لأحظى بقسط من الراحة، فغدًا يوم حروب أيضًا، ومن غير اللائق الذهاب إلى الحرب متعبة. لذا خلدتُ إلى فراشي بعد أن تبادلت أطراف الحديث مع منى أيضًا حول تخطيطاتها لحفل زفافها، وأعطيتها بعضًا من أفكاري اللامعة التي من الممكن أن تفيدها في أمور التنظيم والتزيين، ثم تقلبت إلى الجهة الأخرى كدليل على رغبتي في النوم. وعندما أوشكتُ على الغرق فيه، أيقظتني رنة هاتفي معلنة عن وصول رسالة نصية. ففتحت عيني فور سماعها، ثم حملت هاتفي ليصير بمحاذاة وجهي، وحدقت بشاشته بعد أن فتحت الرسالة. كانت تحتوي على جملة ما جعلتني أستغرب، خصوصًا أن المرسل رقم أجهل صاحبه، كانت تقول: "الحزن لا يليق بعينيكِ أبدًا، السعادة تلائمكِ أكثر."

ابتسمتُ رغما عني عند قراءتها، حتى مع القليل من الشك الذي تسرب إلى قلبي في أن صاحبها أخطأ في الرقم حتما، وكان يقصد بكلماته شخصًا مختلفًا. وإلا من سيرسل إليّ أنا كلامًا كهذا في هذا الوقت؟ وبعد دقائق مرت، قررتُ الرد على المرسل علّه لم يخطئ فأفهم من هو ولماذا، وربما أنبهه بأن كلامه لم يصل إلى المعني إن كان بالفعل مخطئًا.

لذا كتبتُ:

_عفوًا، من معي؟

ثم بقيت أنتظر ردًا، إلا أنّ الردّ تأخّر. لذا جزمتُ بأن المرسل أخطأ لا محالة، وفضلت العودة إلى النوم بعد أن تركت هاتفي على الطاولة. لكن قبل أن أغوص في النوم، أعلن هاتفي عن رسالة قادمة. فانتفضتُ من مكاني بسرعة، وحملته وفتحت الرسالة. وبعدها لم يكف فمي عن التقوس مبتسمًا. كانت الرسالة تقول:

ـ"إنه أنا، أيهم. أردت الاطمئنان على حالك، والاعتذار عن كوني السبب في تأخرك اليوم عن امتحانك. أتمنى أن تكوني اجتزته، وأنا حقًا آسف. ومتأسف أيضًا إن كنتِ أزعجتكِ. تصبحين على خير يا سمراء، أراكِ قريبًا جدًا."

بدت رسالة عادية جدًا بعد قراءتها مرارًا، وليس هناك من داعٍ للابتسام الغبي. لكن لم أعلم ما الذي دهاني وقتها. أظن بأنني، ولا سمح الله، بدأت أفكر بأيهم! دعنا لا نستعمل مثل تلك الكلمات كـ"يعجبني"، ولنكتفِ بقول "تسعدني رفقته" أو "أفكر به". لا أعلم، هو يبدو كشخص يهتم! ورفقته مريحة جدًا، لكنني سأكتفي بالاحتفاظ به كصديق حتمًا، ولن اسمح لنفسي بمثل هذه الأفكار العقيمة. حملت هاتفي مجددًا وكتبت له:

ـ"لا تعتذر، لقد اجتزته. تصبح على خير.".

أرسلتها ثم خلدت للنوم بعد أن ضَبَطتُ هاتفي على الوضع الصامت، واستغرقتُ في حوار مع قلبٍ أسير، أحاول إقناعه بجلادٍ جديد عله ينسيه القديم، يأسًا لا حبًّا في الأمر. حاورته حتى غلبني النوم.

في اليوم التالي، مارستُ نفس طقوس اليوم السابق من استيقاظ باكر، وذهاب وعودة من الجامعة، وبعد يوم حافل آخر، انتهى بي الأمر في المساء على أريكة الصالون، أتربع واضغط بعشوائية ناتجة عن الملل على أزرار جهاز تحكم التلفاز. وبعض قطع البسكويت المملح وكأس من العصير، ومنى يجالسونني في وحدتي.

كان المطر يداعب الأشجار والطريق خارجًا، ويصدر صوتًا لطيفًا عند ارتطامه بسقف المنزل وبالنافذة. كان ذلك أحب الأصوات إلى قلبي.

نظرتُ إلى الساعة التي لا تنفكُّ تصدر أصواتًا مزعجة وتعدُّ الوقت، فوجدتها تشير إلى الخامسة مساءً. أي إنَّ السيد الوالد سيصل في أية لحظة. ولا شكَّ أن الجوَّ ساهم بشكل كبير في جعله يتأخر بعض الساعات عن وصوله على غير العادة.

بعد شهر طويل من الغياب، كنتُ أتمنى أن يطول أكثر. قد عاد أخيرًا. مددتُ يدي إلى الصحن الموضوع وتناولتُ بيدي قطعة بسكويت، ووضعتها في فمي، ثم قلتُ لمنى التي تجلس صامتة ولا ترفع رأسها عن هاتفها:

أبوك سيصل بعد قليل.ـ

أجابتني دون النظر إلي:

ـأعلم.

ـمن أخبرك؟

ـليسَ هناك من داعٍ ليخبرني أحد، سعادة سيرين ونشاطها منذ الصباح تجعل البلدة بأكملها تعلم بأن أبي قادم.

ـمعكِ حق، استيقظت قبل أن أستيقظ أنا حتى، والحماس بادٍ على وجهها بشكل لا يصدق، وكأنها تقابله لأول مرة.

سكتت قليلًا بعد أن حملت كوب عصير التوت وارتشفت منه قليلًا، ثم تابعت.:

منى، تعلمين، بدأتُ أحسدك على زواجك هذا، ستنتقلين للعيش بعيدًا عن هذا المكان المثير للسخرية، وسأظل أنا هنا مجبرة على تحمل تصرفات والدنا الصبيانية وزوجته الصغيرة.

نظرت إليّ نظرة استغراب ثم قالت ساخرة:

ـ اعتقدتُ أنَّكِ بدأتِ تحبين سيرين.

ـ ما الذي جعلكِ تقولين هذا؟ أنا لا أحبّها ولا أكرهها، هي لا تعني لي شيئًا على الإطلاق.

ـ أمزح معكِ يا فتاة، كَفا، لمَ تقولين مثل هذه الأشياء؟ لماذا ستظلين هنا؟ أنتِ أيضًا فتاة، هل غاب عن بالك هذا الأمر؟ ستتزوَّجين كما فعلتُ أنا، و سيتَزوَّج أحمد أيضًا، و سننتقل جميعنا برفقة أُمّي، أليس هذا ما خطَّطنا له منذ مدَّة؟

ـبلى، لكنَّني لستُ أدري لما يساورني الشّك أنَّ هذا الأمر بعيد المنال جدًّا لدرجة أنه يبدو مستحيلًا.

ـ ولماذا هو مستحيل يا ترى؟ هل انقرض الرِّجال من على كوكب الأرض ولم أسمع بذلك؟ أم أنَّ النِّساء انقرَضنَ لكي يبدو لأختي السَّلبيَّة أنَّ زواجها وأخيها أمر مستحيل؟

ـ أنتِ لا تفهمين ما الذي أتحدَّث عنه.

ـبلى، أفهم، وحتى إنني أكثر الأشخاص فهمًا هنا. أنتِ تظنين أنه لا رجال صالحين بعد العاطل الذي قابلته و تؤمنين بمثل "الرجال سواسية"، لكن هذا خطأ فادح، بل أكثر الأخطاء فداحة. وطريقة تفكيرك هذه هي من يجب أن تتغير لكي تتمكني من رؤية العالم من جديد. خارج هذا الباب هناك عالم يحوي شخصًا يستحق قلبًا كقلبك، شخصًا مختلفًا عن الجميع ومطابقًا لكِ تمامًا. شخص يهتم ويكترث، أنتِ فقط انزعي طريقة تفكيرك تلك لتستطيعي رؤيته. لا يوجد أكثر من يزن يا حبيبتي كان شخصًا واحدًا ولن يتكرر في حياتك مجددًا.ـ

لم أعلم بما كان عليّ الرد على كلامها هذا، لذا اكتفيت بالصمت، غير نكرة أنه لمس كل جرح في قلبي بعمق شديد حتى دمعت عيني. لم أعلم كيف لاختي أن تدرك ما عشته وما أفكر به بهذه البراعة، لكنها حتما محقة، عليَّ أن أغير العديد من الأشياء.

قاطع حديثنا طرق شديد على الباب فنهضنا معًا لنرى ونحن نقول بأنه حتمًا أبي.

فتحت منى الباب بينما اتكأتُ أنا على طرف باب الصالون ونظري متجه نحوها. كان بالفعل أبي من قدِم، كان يبدو مبتلًا بالكامل وغاضبًا قليلاً. عند وقوفه هناك قبل أن يدخل، استحضرت في مخيلتي نفس المشهد الذي شاهدته الآن عندما فتحت له الباب في يوم مشابه لهذا منذ وقتٍ لا بأس به، لأجده ساخطًا غاضبًا من تقلب الجو لأنه أعاق عليه عمله. كان الجو آنذاك يشبه الآن كثيرًا، لكن هذا الشخص لم يعد يشبه ذاك على الإطلاق، أو على الأقل، أنا لم أعد أراه كذلك. فذاك كان حنونًا وهذا أكثر الناس قسوة. ذاك كان أكثرهم اهتمامًا، وهذا نال نوبل للإهمال والتجاهل.

تأسفت بشدة لما آل إليه حالنا، ولعنت الأمور التي تسببت في ذلك. ثم سلمت عليه أنا الأخرى قبل أن تقاطعني زوجته الصغيرة، ترحب به بحفاوة، أما أمي فاكتفَت بقول "مرحبًا بك"، واليأس الذي امتزج بخيبة أمل كبيرة لا يفارق نظراتها. كنتُ أعلم يقينًا أن الألم لم يغادر قلبها منذ تلك الليلة التي أحضر فيها بديلة لها وواجهها بها. أعرف حق المعرفة كمية حب أمي له في السابق، وربما الآن أيضًا. لذا، فالعيش تحت حكم هذه الأوضاع يعد أصعب الأمور بالنسبة لها.

كان الأمر الوحيد الذي جهلته هو المكان الذي ذهب إليه حب أبي لأمي.

أيعقل أن يتغير الإنسان بين ليلة وضحاها؟ أَ يتغيّر لدرجة تجعله يتجاهلها بكل قسوة ويلغي كل معتقداته السابقة بشأنها ويستبدلها بأخرى؟! هذا هو الأمر الوحيد الذي جهلته، وأظن أنني لن أعلمه ما حييت.

أجابها بترحيب:

ـأهلاً بكِ أيضًا يا فاطمة.ـ ثم التفت في نفس الثانية ليلتقط حقائبه من على الأرض، طالبًا من سيرين مساعدته على إدخالها إلى البيت. أدخلتها، ثم ناداني أنا بعد أن كنتُ انصرفت نحو المطبخ تاركة إياهم. لذا، عدتُ إلى الصالون لأعلم سبب مناداته لي، فوجدته قد افترش الأرض بمجموعة من الأشياء التي قد اشتراها كما كان يفعل سابقًا! استغربت المنظر قليلًا، ثم قلتُ ساخرة بصوت منخفض يكاد لا يُسمع.

هدايا أم رشوة!

قال هو:

ـتفضّلي يا دَارين، هذه لك.ـ ثم مد يديه ليعطيني شيئًا مغلفًا، وعلى ما يبدو أنه حزمة من ثلاثة كتب أو أكثر. أخذتها منه شاكرة إياه بنبرة لا تخلو من العادية، بل لم يرف لي جفن حتى، على عكسه هو الذي ظل يطالعني وينتظر مني رد فعل معين ربما! لذا أظن أنني خيبت آماله كالعادة. ثم جلست على الأريكة بجانب أمي وكلي تأهب لأي حركة جانبية أو رد فعل مثير للاهتمام سيصدر عنه أو عن زوجته، لأن إحضاره للهدايا منذ زمن بعيد واهتمامه

الكبير ببذل جهد في انتقاء أمور يحضرها لعائلته أمر جديد عليه وعلينا قليلاً، ويلزمنا وقتًا لنعتاد، إن كان غير جلده مرة ثانية.

ناول منى علبة أخرى، تبين لاحقًا أنها مجموعة عناية بالبشرة كانت قد طلبتها منه العديد من المرات ولم يحضرها لسبب معين. وعلى عكسِي تمامًا، انفرجت أسارير منى عن ابتسامة متواصلة وعدة عبارات شكر يتخللها الكثير من "يا إلهي". فرحت هي وابتسمتُ أنا. ثم أتى دور أمي على ما يبدو لأنه وجه نظره نحوها حيث تجلس هي على الأريكة بصمت تام، تطالع الجميع بابتسامة خفيفة، أكاد أقول بأنها تتصنعها بصعوبة. ثم قال:

أما لفاطمة فأحضرت شيئًا مميزًا!_

نظرنا نحوها جميعًا ثم نحوه، وبينهما نظرتُ أنا لأراقب رد فعل سيرين على جملته تلك، لأجد وجهها قد تصلب نتيجة ضغطة قوية على أسنانها جعلت فكها يبرز أكثر بقليل من بروزه المعهود، لكنها لم تنفوه بشيء على عكس توقعاتي. أما أبي فنهض ليعطي أمي شيئًا مغلفًا ما، ثم عاد وجلس مكانه وبقي يناظرها فيما تفتحه.

عند قوله "شيئًا مميزًا" اعتقدتُ أن هديتها ستكون جلد نمر ملفوف بشريط ملون كان قد اصطاده من إحدى غابات الهند، أو أنها ريشة طاووس يتقن الكلام، أو على الأقل شيء لا يمت للعادية بصلة. لستُ أبالغ، أليس هو من استعمل هذا الوصف؟ إذًا كيف تكون الهدية غطاء رأس بني اللون

يبدو عليه القدم أكثر من معطف ميمّا الذي يقبع في قعر الخزانة منذ عدة سنوات؟ هل يهزأ بها أم بنفسه؟ والله لستُ أعلم.

بعد أن شاهد الصدمة على وجوهنا جميعًا قال:

ـإنّه غطاء رأس مميز، اشتريته من أحد باعة الطرق. قال إن هذا أقدم قطعة عنده اشتراها من أحد عابري السبيل منذ زمن، عنده، أي إنه بمثابة قطعة أثرية مهمة.ـ

حدقتُ به أنا بعد أن ابتلعتُ نبرة غضبي العارمة التي كادت أن تخرج، واستبدلتها بنبرة متحكم فيها، ثم قلتُ له:

وهل تسير في الشارع مرتدية قطعة أثرية يا أبي؟ـ

نظر إليَّ ثم قال:

ومَا العيب في ذلك؟ الأشياء القديمة باهظة الثمن ومهمة جدًا.ـ

قبل أن يكمل جملته، قاطعته ضحكة خفيفة من سيرين، وعلى ما يبدو أن العزيزة كانت تكتم ضحكتها منذ وقت لا بأس به لينتبه الجميع لها بعد الصوت الذي أصدرته. حدقنا بها جميعًا بغضب واستغراب، لكنها لم تبرر فعلتها. وبسرعة، سألتْ أبي عن هداياها هي لكي لا تترك وقتًا لأحد ليستوعب الحاصل. وبالتأكيد، تجاهل الأمر وراح يضع الهدايا أمامها وكأنه جنيٌّ ما. أحضر لها حقيبة كاملة بها الثياب، الحلي، علب المكياج، وأمور أخرى وأخرى. ظللتُ أنظر إليها وهي تعبر عن سرورها بالأشياء التي حصلت عليها

دون الالتفات إلى أمي التي تجلس بجانبي بصمت. خفتُ أن ألتفت فأرى الحزن يركب عينيها ويأبى النزول. خفتُ من أن أرى الغيرة والحسرة بين ملامحها، وارتعبتُ من مشاهدة انكسار خاطرها للمرة الألف من نفس الشخص. نظرتُ جانبًا إلى يديها، فرأيتها تشد غطاء الرأس البالي الذي أهداها إياه، وتسمر نظرها على سيرين.

شعرتُ بما يجتاح قلبها وأحسستُ بها. كانت في تلك اللحظة كفتاة صغيرة لم تنل الحب الكافي من والدتها، لذا هي أهدت أختها لعبة ما، ولم تُهدِها هي. شعرتُ بالتهميش والإهمال، بأنها الأقل شأنًا والأقل أهمية. شعرتُ بأنها الشيء البسيط الممكن الاستغناء عنه، وبأنها "لا أحد" بعد أن كانت "الجميع". تألم قلبي بشدة في تلك اللحظة، ولكنني لم أشأ إبداء أي رد فعل يزيد عليها وجعها، وتظاهرتُ بالعادية التامة، بل نهضتُ وقلتُ لها:

أمي، ما رأيك أن نعد حلوى بالشوكولاتة، اشتهيتها؟ هل تاتين معي؟

نظرت إليَّ بعدم فهم، وكأنها تقول: أي شوكولاتة هذه؟! لكنها قامت وأتت معي تاركة إياهم.

في المطبخ، انهَمكنا في تحضير الحلوى، وكنت أتصنع بشدة وكأننا نتجاهل ما حدث خارجًا. حاولت قدر الإمكان عدم الحديث عن الأمر لكي لا أزيده عليها، مما جعلها تعتقد أنني لا أفهمها أو لم أشعر بما شعرت به، لكنني فعلت، وفعلتُ كثيرًا!

بعد انتهائنا من المطبخ، توجهت كل منا إلى غرفتها لتنام، لكنني لم أشأ الذهاب قبل الاطمئنان عليها، لذا تظاهرتُ بذَهابي وانتظرت حتى دخلت أمي إلى غرفتها. ولحسن الحظ، أنها لم تغلق الباب تمامًا، لذا وقفت أسترق النظر لأطمئن على حالها قبل أن آوي إلى فراشي. لكن ما رأيته هدم كياني.

رأيتها تجثو على ركبتيها أرضًا، تضم بيسارها شيئًا ما إلى صدرها وبيمينها تمنع صوت بكائها من الخروج. كانت تجهش في بكائها وكأن لا ألم في هذه الدنيا بعد ألم قلبها! تضغط بقوة على فكها كلما علت تنهيداتها وتكتمها بقسوة، وكأن من في الخارج سيُعاقبونها أشد عقاب إن أدركوا بكاءها وحالها هذه. بيدٍ مرتعشة، تحسَّستُ منطقة القلب عندي لأحَاول تهدئة صراخه ومواساته قليلاً بعد الذي شاهدته.

فليتخيل أحدكم الكمية الرهيبة من الوجع الذي أحسست به حينها عند رؤيتي لمن اعتادت تجفيف دموعي وهي تنهار وتبلل الأرض دموعًا! لم يحتمل قلبي مشاهدتها، فانصرفت بسرعة نحو غرفتي واختبأت تحت غطائي كاللص الجبان، وبكيت، بكيت حتى جفت مدامعي وتشقق قلبي. بكيت لأن كلي يبكي في غرفته ولا حيلة بيدي لِأفرح قلبه. لا قوة لي لأقول: "لا تبكي يا أمي، كل شيء سيكون بخير"، فلا شيء بخير بداخلها ولا طاقة لها لاحتمال الكذب الواضح. هل أعتذر عن من كسروا قلبها؟ وأقول أنَّ وجودي أنا يكفي؟ لكن ماذا لو كنت لا أكْفي؟ كيف لي أن أفعل،

ولست أنا من تريد منه الاعتذار؟ لست أنا من بيده كسر قلبها ومداواته من جديد، حتى لو كان الاعتذار لا يشفي الجراح! والله ما بكيتُ إلا حسرة على عجزي البالغ، فما عساي أن أقول إن دخلتُ عليها؟ وأي الكلام سيهدّئ نار قلبها؟ لذلك انسحبتُ هذه المرة، فلا هذه المعركة تخصني ولا أنا المعني بالترميم هذه المرة.

صباح اليوم التالي استيقظت في وقت متأخر، لكنني لم أنهض وبقيت في الفراش أحدق في اللا شيء وعقلي يفكر بشكل عشوائي في آلاف الأمور. بعد وقت ليس بقصير، سمعت صوت أحمد الذي كادت حاسة سمعي ألا تتعرف عليه من غيابه المستمر غير المبرر عن البيت. بدا وكأنه يشاكس منى كما يفعل عادة. وفجأة اجتاحني شعور قوي لرؤيته والحديث معه، لذا انتشلت نفسي من تحت غطائي واتجهت نحو المطبخ بعد أن اغتسلت.

كان المطبخ مكتظًا بعض الشيء، منى تجلس على الطاولة تتناول فطورها وأحمد يتعمد إزعاجها ويمازحها فتنفَعل بشكل لطيف وتحاول إبعاده عنها. قرب الفرن تقف سيرين كالظل تحضر شيئًا، مما جعلني أشعر ببعض الاستغراب من أحمد، فهو عادة لا يجلس حيث تجلس سيرين! كرهه لها لا ينافسه فيه أحد. وأمي تخرج شيئًا من الثلاجة.

نظر الجميع نحوي عند وقوفي أمامهم، وكأنّهم يلاحظون وجودي لأول مرة. حدقوا بي جميعًا حتى قطع تحديقهم كلام أحمد.

ـدارين، هل أنتِ بخير؟

أجبته بكل ثقة:

ـ نعم بخير، وأنت؟

تقدم نحوي تاركًا منى تحدق بي بنفس النظرة التي ارتسمت على وجه منى وأمي أيضًا، ثم لمس جبيني بظهر يده وقال:

ـهل أنتِ مريضة؟ ما خطب وجهكِ؟ لما شحب لونك واسودت منطقة تحت عينيكِ؟ ثم استرسل بنبرة بدا عليها القلق:

هل هناك شيء؟

قبل أن أجيبه، تقدمت أمي هي الأخرى نحوي بخطوات سريعة وكررت نفس حركات أحمد ونفس الأسئلة التي قد طرحها هو علي للتو بقلق مضاعف ونبرة أعلى، لكنني لم أفهم عما يتكلمان حتى خرجت ونظرت إلى نفسي في المرآة التي انتبهت للتو بأنني لم أنظر بها منذ مدة. عند وقوفي هناك، تفاجأت من مظهري الغريب بشدة، لأنني كنت أبدو كالعروس الجثة حرفيًا! شعرى بدا عليه التلف والذبول والتشابك المستحيل الفك، و تشكلت طبقة من الجلد الميت فوق طبقة بشرة وجهي الذي اجتاحته التصبغات. أما منطقة تحت عيني فتلونت بالأسود الفاحم حتى صرت أبدو كمن توفي زوجها منذ يومين. شعرت بالبؤس الشديد على حالتي هذه ورحت أجَهز الحمام لأغرق به نفسي علّ حالي هذا يتغير.

بعد انتهائي من حمامي الذي استعدت معه طاقتي النافذة، قررت التوجه نحو أمي لأتفقد حالها. دلفت إلى المطبخ وجلست أمامها أراقبها تنهمك في تقشير بعض الخضر لتحضير طعام الغداء. بقيت أحدق بها لفترة لا بأس بها دون الكلام. كانت تغوص بنظرها في الوعاء الذي أمامها وكأن حل مشاكل قلبها يقبع في قعرِه هناك. كان الحزن يتسرب من بين ملامحها دون تصريح منها، أنا فقط شعرت به كما تشعر هي بألَمي أنا.

لم أرد الكلام معها عما حدث ليلة أمس وفضلت التزام الجبن. ربما خشية من رؤية دموعها مجددًا، فهي أكثر ما يرعبني ويهدم قلبي.

بعد صمت طويل، رفعت نظرها نحوي ورمقتني بنظرة عميقة هادئة، ثم قالت:

ـهل أنتِ بخير يا ابنتي؟

بادلتها النظرة ثم أجبتها:

ـهل فعلاً أنا من يجب سؤاله عن حاله؟ بل كيف الحال عندكِ يا أماه؟

أخفَضت رأسها مجددًا ثم قالت:

ـالحمد لله، بخير، أنا بخير.

أردت أن أسألها عن أي خير هذا الذي تتكلم عنه! فأنا لم أَرَ الخير الذي أعرفه يطوف بها منذ مدة. ترى هل تقصد خيرًا آخر من نوع لست على قدر من المعرفة به أم ماذا؟ لكنني لم أجرؤ واكتفيت بالنهوض ومغادرة المطبخ متوجهة نحو غرفتي أفكر في الذهاب خارجًا.

في تلك الأثناء، وعند نوم الجميع، يستيقظ شخص ما تحت سقف ذلك المنزل، شخص ما ينوي على شيء كبير يغير مجرى حياته إلى الأبد. شخص قد ضاق

درعًا بما حصلته له معتقداته، لذا تخلى عنها وتبنّى أخرى. شخص اكتفى من كونه الولد الصالح، الأخ السند، والإبن البار، وحان وقته ليلمعَ كما قيل له.

أما عند المرآة الكبيرة، وقفت فتاة في الأربعينيات من عمرها، تطالع نفسها وتحاول الاستيعاب لأول مرة بأن أكثر من عشرين سنة قد مضت، ومضى معها الكثير من الأمور.

كانت الواقفة هناك فاطمة أخرى غير التي كبرت عليها وأرادت التحول إليها. كانت هذه فاطمة أجبرت على تقمصها لسبب نبيل كما يُشاع، في سبيل تكوين العائلة، والإرضاع، والتربية... لمست وجهها بيدها، ثم قالت:

ـأيْن العمر يا فاطمة؟ إلى أين ذهب؟ أين الابتسامة الخلابة، وأين العيون الواسعة؟ حتى هي قد انكمشت جراء التجاعيد المبكرة التي احتلت الوجه. أين الحسن الذي وقع عبد الحميد بحباله يومًا؟ عبد الحميد الذي تحدى الجميع يوما من أجل عيونك، والذي جعل والدك يعجب به بعد العديد من مرات الرفض. آه لو أنك تعلم وترى يا أبي ما فعله بي ذاك الولد الحالم كما كنت تطلق عليه! آه لو علمت بأنه لا يكتفي ولا يعرف للشبع معنى. لا سنوات الإرضاء والاهتمام قد أغرته، ولا التعب والحرمان من أجل سعادته قد

أحدثا في قلبه فارقًا! قد هانت عليه العشرة يا أبي، وهان قلبي عليه، وأهانه. حتى الرحيل لم يعد حلاً واردًا يا أبي، فحديث الناس حبل متين يقيد وسطي. أما الأولاد، فقضبان حديدية قد حبست داخلها منذ ولادتهم جميعًا، وما باليد حيلة لينسحب.

بعد يوم حافل كاد لا ينتهي في الجامعة، عدت إلى البيت مجبرة لا راغبة، أحمل بيدي كيسًا به بعض الأشياء. حملت الكيس واتجهت إلى غرفة أمي. قرعت الباب برفق وانتظرت حتى فتحته. نظرت إلي وقالت:

ـأين اختفيتِ طوال اليوم يا فتاة؟ وأين أختك؟

أجبتها بينما نسير باتجاه سريرها: كان عليَّ الانتهاء من بعض الأمور في الجامعة قبل عطلة الشتاء، لذا ذهبت إليها. أما منى فقد سبق أن تركت لي رسالة نصية تقول فيها إنها برفقة أمير قد ذهبا للتسوق، وطلبت مني إبلاغك بالأمر، لكنني نسيت تمامًا.

قالت لي بعد أن نهضت لتحكم إغلاق النافذة:

ـالجميع يفعل ما يحلو له، ولا أحد يكترث لرأيي ولم يعد هناك من يحتاج إليّ، أليس كذلك؟ لقد كبرتم وصِرتم تعتمدون على أنفسكم، ولا حاجة لكم بي بعد اليوم.

نهضت إليها بعد أن قوّست حاجبي، وقلت بنبرة حازمة:

ـلكِ أن تقولي مثل هذه الأشياء يا أماه؟ أيكتفي الإنسان من أمه؟ أنستغنِي عن ركيزتنا جميعًا؟ أنتِ الخيط الذي يصل بيننا، وملجأنا المشترك. أنتِ أمي التي تزين الحياة ولا حياة بعدها. ثم احتضنتها بعد أن ابتسمت لكلامي وأضافت:

ـ لقد كبرنا نعم، لكنّ المرء يحتاج لأمّه حتى بعمر المئة.

بعدها انفلتت من بين ذراعيَّ ونظرت إليَّ فوجدت عينيها تمتلئان بالدموع، لكن رغم ذلك، كانت تحاول الكلام. أمسكت يدي، ثم قالت:

ـأنتُم الثلاثة كلّ ما أملكه في هذه الدنيا القاسية. سعادتكم مسؤوليتي، ويؤلمني أن أشعر ببعد أحد منكم... أريد أن أراكم أمام عيني دائمًا.

احتضنت يدها بيدي، و أجبتها:

ـلا تقلقي يا أمي، مهما ابتعدنا نعود إليكِ في نهاية المطاف.

ثم استدرت لألتقط الكيس الذي كان بيدي، فتحته وأخرجت منه علبة سوداء متوسطة الحجم، ثم ناولتها إيّاها قائلة:

ـأحضرتُ لكِ شيئًا!

بدت علامات الحيرة على وجهها وهي تفتح العلبة، سائلة إياي عن محتواها، فأجبتها بأن تفتح لترى، وسرعان ما انفرجت أساريرها عن ابتسامة عريضة أفرحت قلبي معها.

كانت الهديّة عبارة عن عقد فضي على شكل قلب، وقد حُفر عليه اسمها "فاطمة" بأحرف جميلة، مع أسوارة جميلة أيضًا تلائم معصمها تمامًا، وتحتهما كتاب قرآن جديد.

كانت تلك الهدية تعويضًا لها عن خيبتها ليلة أمس بهدية ذلك الرجل، رغم أنه أكثر الناس علمًا بقدر حبّ أمي للهدايا.

شكرتني كثيرًا ثم ارتدت العقد وقامت بوضع القرآن على الرف مع الكتب القديمة، بينما خرجت أنا لأنني سمعت أحمد يناديني.

_ ماذا هناك؟ هل تريد شيئًا ما؟

_نعم، في الواقع أريد منك تنظيف غرفتي إن لم يكن لديكِ ما تقومين به. أرجوك هي في حالة فوضى.

أجبته أنا:

_نعَم، بالتأكيد سأنَظفها فورًا، لا عليك.

ثم استدرت مغادرة، لكنّه أمسك بي من معصمي و أدارني إليه ثم نظر في عيني بعمق وقال:

_شكرًا جزيلًا يا أختي، لطالما كنتِ الأحن بيننا.

ثم احتضنني بقوة!

استغربت فعله هذا، فتنظيفي لغرفته لا يعد شيئًا جديدًا. أنا أنظف غرف الجميع وباستمرار دون مقابل، لماذا يتصرف بعاطفية شديدة هذه المرة؟

بعد أن تركني، نظرت إليه باستغراب وقلت:

_أحمد.. أخي، هل أنت بخير؟

أجابني: نعم، كل شيء على ما يرام، سأذهب لأقضي بعض الوقت مع أمي فقط أراكَ لاحقًا.

ثم دخل هو غرفة أمي، وذهبت أنا لأحضر مواد التنظيف لأقوم بما طلبه مني.

كان الوقت ليلاً تقريبًا، فالشمس قد غربت منذ ساعة ونصف، والجميع منهمك في الاهتمام بشؤونه الخاصة.

منى ترتب مشترياتها، وسيرين تحضر طعام العشاء لزوجها في المطبخ، بينما يشاهد هو التلفاز بصمت في غرفة المعيشة. أما أحمد، فخرج منذ قليل ليعود بعد منتصف الليل كعادته في كل يوم. أما أنا، فانّهمَكت في تنظيف غرفته التي كانت تستنجد بسبب حالتها المزرية تلك. كانت تحتوي غبارًا أكثر مما تحْتوي أهرامات الجيزة بسبب امتناعها عن ضوء الشمس لسنوات على ما يبدو، أما رائحة الأموات تلك، فتَنبعث من الأكوَام المكدسة من الثياب المتسخة، تساندها رائحة بقايا الطعام الذي طبخ منذ عقود من الزمن. استعذت بالله من الشيطان الرجيم خوفًا.

من أن يقفز جنيّ ما من أحد زوايا الغرفة وباشرت عملي الذي دام ل 3 ساعات متواصلة دون راحة بعد انتهائي أخيرا توجّهت نحو غرفتي لأخذ قسط من الراحة وفي طريقي مررت بأمّي لأتمنّى لها ليلة سعيدة.

ـأمي... هل نمتي!

ـ لا ليس بعد تعالي وادخلي.

بعد أن جلستُ عند قدميها سألتها إن كانت تناولت طعام العشاء فأجابتني بنعم، ثم سألتني عن ما إذا عاد أحمد إلى البيت أم لا، لكنني أخبرتها بأنّ موعده هو الثانية عشرة ليلا كعادته لكنها قالت شيئا عنه ذكرني بتصرفه معي قبل أن يغادر البيت، قالت بأنّه جلس يحتضنها ويعبّر عن اشتياقه لها وكأنه يودعها!. استغربت كثيرا لكنني لم أرد أن أثبِث شكوكها أو أفزعها لذا طمأنتها بأن لا شيء مما تفكر به حقيقي، وبأن هذه طبيعة أحمد لا غير، ثم تمنيت لها ليلة سعيدة وذهبت إلى غرفتي وأنا أراقب ساعة هاتفي التي اقتربت من الثانية عشرة. بعد ساعتين ونصف قضيتها على هاتفي أتصفح صفحة الفيسبوك الخاصة بي وأحدّث هالة عن قلقي على أحمد لأنّه تأخر في العودة، سمعت طرقا خفيفا على باب الغرفة، فقمت لأفتح فإذا بها أمي وقد بدى عليها القلق الشديد، أدخلتها ثم سألتها عن سبب عدم نومها فقالت:

ـشيء ما ليس صحيحا يا دارين أشعر بأنّ أحمد ليس بخير اتصلي به فورا، أرجوكِ اتصلي به أين هو الآن؟ لقد تأخر في العودة!

لم أستطع طمأنتها ولا التهدئة من روعها هذه المرة ورحت أتصل به وفق طلبها، لكن هاتفه كان يرن باستمرار دون أن يجيب أحد! فزاد هذا من قلقها أضعافا وصارت تهرول ذهابا وإيابا في الغرفة ولم يستطع أحد تهدئتها.

بعدها استيقظت منى وكأنها تسمعنا لأوّل مرة لتجدنَا على ذلك الحال، نظرت إلينا بعد أن أخبرناهَا بسبب القلق ثمّ قالت:

ـأنتما تبالغَان في الموضوع كثيرا، أين عساه يذهب؟ بالتأكيد إنّه برفقة أصدقائه يتسكّعون ويمرحون في مكان ما، لذا تأخر في العودة... لا تقلقا عبثا واخْلدا إلى النّوم، ستجدَانه يأتي مرهقا بالكامل في الصباح ويعتذر صدّقاني.

كان لكلاَمها تأثيرٌ بسيط على أمي، جعلته أنا أكثر تأثيرًا بموافقتي على كلام منى لتهدئة روعها فقط، وإن كان روعي أنا لم يهدأ. وبعد عدة محاولات، رضيت أخيرًا بأن تخلد إلى النوم وتكف عن القلق والتفكير بسلبية.

في الصباح الباكر، سمعت طرقًا قويًا على الباب، وكان هو سبب استيقاظي بهلع. انتظرت أن يكفّ الطارق عن الطرق بفَتح أحدهم الباب، لكنه لم يتوقف، فخرجت أنا بعد أن رفعت شعري عن وجهي برباط شعر بلاستيكي وفركت عيني لأرى بوضوح من خلف الباب، لكنني دهشت من الشخص الذي هناك!

كان الواقف خارجًا شخصًا أمقته بشدة ولا يحبه أي شخص في هذا الحي بسبب سوء سمعته، لكنه رغم ذلك صديق لأحْمد. كان الواقف هناك سامح! بدا عليه الإرهاق أو الحزن، لم أستطع التحديد، لكنه بدا غير متوازن البتة. لكن استغرابي كان من سبب قدومه في هذا الوقت الباكر! لم يدم استغرابي طويلًا، إذ لسعت عقلي فكرة شيطانية بقوة، فقلت له بعد أن دام الصمت بيننا:

ـ إياك والتفوه بأمر سيئ! أحمد بخير، أليس كذلك؟

نظر إليّ بعد أن امتلأت عيناه بالدموع، مما زاد خفقان قلبي وتأكيد شكوكي. حاول الكلام لكن دموعه سبقته، فمسحها بسرعة وقال:

ـ أنا آسف حقًا، أحمد في ذمة الله. عظم الله أجركم!

في تلك اللحظة تمامًا، توقف الزمن وكفّت الأرض عن الدوران. شعرت بقلبي ينزلق من بين أضلعي ويرتمي أرضًا لما سمعه. حاولت الكلام، لكنني لم أستطع. أردت الصراخ، لكن شيئًا ما كان يمنعني ويضع يده على رقبتي ويخنقني.

استدرت بهلع إلى أمي التي سمعت جملته القاسية، فوَجدتها تصرخ به بكل غضب:

ـ من تعظّم أجره أيها الشاب؟ أي كلام هذا الذي تقوله؟ أنت مخطئ، لقد أخطأت العنوان. نحن لا نعرفك أساسًا.

لكنه استمر في البكاء بصوت عالٍ كطفل رضيع وهو يقول:

ـ لقد حذرته، أقسم لكم أنني فعلت. حاولت منعه لكنه لم يستمع. لم يرد التراجع عن قراره أبدًا.

خرج أبي، وتبعته منى وسيرين، يسألونني عن سبب صراخ أمي ويسألونها هي أن تهدأ. ظلت منى تهزني بقوة وتصرخ محاولةً فهم ما حدث، لكنني تجمدت تمامًا، وكأنني لا أراها. وبعد أن وجه أبي سؤاله إلى سامح، أعاد له نفس الجملة التي ذبحتني بها:

ـ أحمد في ذمة الله يا عمي.

تراجع أبي خطوتين إلى الوراء ثم قال بألم:

ـ ما الذي تقوله يا فتى؟ أي أحمد تقصد؟ هل هو ابني أنا؟ كيف لهذا أن يحدث؟ ما الذي حصل؟ أخبرني!

أجاب سامح من خلف دموعه:

ـ لقد ركب قاربًا ليلة أمس. قارب للهجرة إلى فرنسا، لكن معلومات وصلتنا صباح هذا اليوم تفيد بانقلاب القارب وعدم نجاة أي من الركاب. والله لقد طلبت منه عدم الذهاب، لكنه كان يخطط لذلك منذ زمن. لقد كان صديقي الوحيد... قالها ثم انفجر باكيًا مجددًا.

ومع انفجاره انفجر الجميع دفعة واحدة... بكاء أمي الهستيري، وسقوط منى مغشيًا عليها، ونواح سيرين، وصدمة أبي التي جعلتني أرى دموعه للمرة الأولى في حياتي. بكى الجميع بصوت عالٍ، إلا أنا؛ بكيت من الداخل لأن الغضب تلبّسني. عدت أدراجي إلى غرفته حيث كان ينام، وبدأت أكسر الزجاج وأبعثر كل ما رتبته ليلة أمس وأنا أصرخ بصوت عالٍ:

ـ يا لك من خائن! يا لك من جبان! لا أصدق أنك جلست تخطط للهروب منا طيلة أشهر. أي أخ أنت؟ أخبرني، أي أخ وأي ولد يحلم بترك عائلته والفرار منها؟ ألم نكن كافيين لك؟ ما الذي كان ينقصك معنا؟ ما الذي كنت تحاول الهروب منه؟

ضربت وكسرت وشتمت حتى شعرت بإرهاق فظيع في قلبي وانقطاع حاد في نفسي وأنا أتذكر الطريقة التي طلب بها مني تنظيف غرفته... أكان يعلم أن هذا سيحدث، وأنني سأعود إليها لذا طلب مني ترتيبها؟ بعد أن جلست لأستريح....

انطفأت بمجرد أن وقعت عيني على صورة له وهو يبتسم. هدأ الغضب العارم والسخط دفعة واحدة... شعرت أنه يواسيني بتلك الصورة، يربّت على كتفي ويعتذر بألم. حملتها برفق، كأنني أخشى كسرها بالرغم من أنها مجرد ورق! نظرت إليها وانفجرت باكية.

أكان الحضن ليلة أمس وداعًا يا أخي؟ أكان طلبك ذاك آخر طلب وأنا نفذته بكل برود؟ لماذا لم تخبرني أنك راحل عني حتى أستمر في احتضانك لأعوام، حتى أقضي عقودًا بجانبك، حتى أشبع عيني من جمال ابتسامتك؟ لماذا قررت الرحيل بصمت هكذا؟ أيترُك الإخوة بعضهم بهذا الشكل؟

أيكسر الإخوة قلوب بعضهم يا أحمد؟ ما الذي تغيّر؟ أخبرني، ألم نكن بخير مؤخرًا؟ ألم نكن نساند بعضنا ولا نرضى الأذية لبعضنا البعض؟ ما الذي حدث لتهاجر بعيدًا عنا يا أخي؟ أهي البلاد من أغرتك أم أن الدوافع كانت أمورًا أجهلها أنا وتعيشها أنت؟ كنت أمس أخي، فكيف لك أن تكون اليوم فقيدي وضلعي المكسور الذي لن يتعافى مهما مرت السنين عليه؟ والله ما أنا ساخطة على أمر الله، فالموت حق علينا جميعًا، لكن الذي فطر قلبي هو الطريق الذي أدّى بك إليه.

بعد فاجعتنا تلك، صار النوم حرامًا في منزلنا، استَبدلناه بالسهر المريع، وحلت المحارم مكان الألحفة. اختلط البيت بأنواع من الناس؛ صنف يحاول تهدئة أمي ومنى بشتى كلمات العزاء الشهيرة، وصنف يثرثر في مدى بشاعة الطريقة التي لقي حتفه بها، وقلة هم من يشاركوننا الألم.

بالنسبة إليّ، كانت غرفته ملجأي لعدة أيام. أبيت مغادرتها رغم محاولات الجميع؛ ربما لأنني أردت فقط الشعور بشيء منه حولي ليخف وجعي، لكن الأيام مرت والثقل زاد ولم يخف ذرة واحدة. كنت أستيقظ كل يوم على نفس الحال: أستيقظ فجأة، أنظر حولي وأحسب يوم أمس مجرد حلم! ثم أغادر غرفته، فيقابِلني جمع من الناس يظهر عليهم الحزن، فينكسر قلبي مجددًا وأعلم أنه ليس حلمًا. فأعود أدراجي إلى غرفته وأرْتمي في حضن فراشه حيث كان يرتمي هو، وأبكي! أبكي حتى يزول الألم، لكنه لا يزول.

غصت في دوامة من عدم التصديق والهلوسات. انقلب النهار ليلًا، وصار الليل نهارًا. الطعام صار يأبى الدخول إلى جسدي دون أن أرفضه أنا حتى، فكل ما يدخل يعود ويخرج فور ملامسته لجدران معدتي، وكأن جسدي يشاركني ألمي ويقيم حدادًا هو الآخر! أبيت الكلام مع أي أحد؛ فلا طاقة لي لاحتمال عبارات العزاء السطحية التي لن تفيد في تخفيف صداع رأسي حتى. لكنني سرعان ما احتجت إلى الدعم، فرضيت بمقابلة صديقاتي فقط. خلال الأيام الثلاثة تلك، زارني من أعرفه ومن لم يسبق لي الحديث معه.

حسناء حاولت التخفيف عني بشتى الطرق، رغم أن استجابتي كانت صفراً بالمئة، لكنها لم تغادرني وظلت بجانبي. أما آية، فلازمت أمي منذ وصولها، تهتم بها وتقيس ضغطها وتشاركها حزنها! ومن يدرك حال هالة؟ فقدت حبيباً وأخ صديقتها... لطالما عرفت بحبها له، حتى وإن لم تصرّح لي بذلك. وإن كان حبها من طرف واحد، عرفت ذلك من عينيها ومن طريقة حديثها عنه ومن بكائها الهستيري وحالها الآن. من يدرك حالها؟ لعلها تبكي ندماً لأن الموت أخذه منها قبل أن تحادثه بما في قلبها.

وما زادها ألماً على ألمها هو حضور حبيبة أحمد لجنازته. كنت على علم مسبق بوجودها في حياته، فقد سبق أن قصّ عليّ قصصاً عنها وعن كمية حبه لها في الليالي التي لا يغادر فيها البيت بسبب اضطراب جوي أو شيء آخر. لهذا لم أشأ مصارحة هالة وحثها على الاعتراف له، واستمررت في مشاهدتها تتعذب دون إنقاذها أو تحذيرها مما قد تقع فيه.

كان اسمها أشْواق، فتاة لطيفة يختبئ خلف دموعها وتورم عينيها جمال خلاب. حضرت صبيحة ذلك اليوم، فمرت عليّ تعظم أجري في فقيدنا، تجرّ قدميها وتخفي دموعها بصعوبة بالغة. نظرت إليها بينما أضع رأسي في حضن حسناء، ثم سألت آية عن هويتها، فأجابتني بأنها حبيبة أحمد. نهضت من مكاني بسرعة فور علمي بالأمر وأمسكت يدها، ثم احتضنتها بقوة وهمست لها: "أحباء أخي هم أحبائي أيضاً". فانفجرت باكية دون توقف.

بعد تلك الأيام الثلاثة انتهى حداد الجميع، لكنّ حداد عائلتي استمر إلى الأبد. من قال إننا ننسى الأموات؟ نحن نتناسى، ولا ننسى أبدًا. كيف لنا أن نفعل وهم يأخذون منا شيئًا ثمينًا معهم؟ يأخذون قطعة من القلب ونصف الروح جرعة من الابتسامة وجزءًا كبيرًا من السعادة... نظل نتذكرهم ونضغط على الجرح، لأن الحياة لا تريد التوقف عند رحيلهم، بل تستمر، تستمر لتعطينا فرصًا أكثر لتذكرهم، وكأننا نبقِيهم أحياء بداخلنا بهذا.

عند استيقاظي، كنت أقضي اليوم متشبثة بصورة لك بين يدي، أطالعها كلما مر بقلبي ألم أو شوق. وخلال وقت النوم، أستغل ساعتين أو ثلاثًا في إجبار ذاكرتي على استحضار ذكريات جمعتني بك قدر الإمكان حتى يغلبني النعاس. كنت أحافظ أنا على ذكراك كما يحافظ المصلي على صلاته الوسطى، بينما يتجنبون هم حتى لفظ اسمك، خشيت أن أنساك، بينما تعمدوا هم ذلك. واليوم، وبعد انقضاء أربعينك، يؤسفني أن أقول بكل حسرة إن الجميع اعتاد!

أمي نفد منها البكاء، وهجرها، تاركًا إياها وما تبقى من قلبها برفقة الصمت الكريه. لكن أي ألم يدوم؟ لن تشفى قريبًا، بل ولن تشفى يومًا، لكنها حتمًا ستعتاد، وإن كان أقسى اعتياد. أما منى، فتحاول استرجاع ما تبقى من ذاتها، يساندها أمير ولا يبرح جانبها، وأي سند أفضل ممن نحب؟ لذا، ستشفى قريبًا من ألمك.

أما عن رد فعل سيرين، فكان أمرًا لم يخطر ببالي يومًا. أصابها الحزن، وشاركتنا الدموع، وقامت بالواجب. وها هي مجددًا تثبت لي أنها إنسان جيد في النهاية. أما أبي، فقد أقام لولده مراسم عزاء تليق به، بكى وحزن، ثم كان أول المعتادين. لذا، يبدو أن الحداد ينتهي بالفعل عند الجميع، وأنا وحدي من ظننت أنه يستمر إلى الأبد!

في إحدى الأمسيات الصامتة، وبعد أيام كانت الأطول على الإطلاق، قررت أخيرًا مغادرة غرفة أحمد واسترجاع غرفتي. أحسست أنني شخص أفاق لتوه من غيبوبة دامت أكثر من خمسين عامًا. نفضت التراب عن قلبي وتقبلت الواقع كالجميع قسرًا، لا رغبة بذلك. استجمعت شتات نفسي، وأخذت نفسًا عميقًا ونهضت؛ فما كان أخي يُحِب أن يراني أنهار واختفي رويدًا هكذا! قررت السماح لنفسي بالتعافي من أحمد لأجل أحمد. ابتدأت أولى الخطى بمغادرة غرفته وأخذ قرار إغلاقها فيما بعد؛ لأنها كانت وستظل ملكه إلى الأبد.

بعد أن أخذت حمامًا طويلًا، اتجهت نحو غرفة المعيشة، فوجدت هاتفي ينسحب وحيدًا في إحدى زوايا الغرفة وقد استعمله العنكبوت لتكوين جسر بين الزاوية والخزانة، طالعني بنظرات عتاب ولوم لإهمالي له طيلة الأيام الماضية.

التقطته، بحثت عن شَاحن، ثم وضعته ليُشحن، وما إن اشتغل حتى انفجر في وجهي بكم هائل من الرسائل والاتصالات الفائتة. لم يكن بيدي سوى فتحها جميعًا.

كانت هناك مئات الرسائل على صفحة الفيسبوك الخاصة بي، من أشخاص لا أعرف معظمهم، وهذا أمر أسرني كثيرًا، خصوصًا أن كل رسالة تضمنت دعوة لأخي بالرحمة أو الجنة. قرأت بعضها ورددت على البعض، ثم انتقلت إلى المكالمات. كان هناك عشرون اتصالًا على الأقل من يزن. لم أستغرب رقمه، لكن ما أثار استغرابي هو كيف حصل على رقم هاتفي. لم أهتم كثيرًا وتابعت قراءة القائمة، لأجد اتصالًا واحدًا من أيهم ورسالة، ففتحْتها:

ـدارين، يؤسفني جدًا أن أتلقى خبر وفاة أخيك. تقبلي مني تعازيّ، وأتمنى أن يرزقك الله صبرًا لا ينفذ، اعتني بنفسك جيدًا، وإلى اللقاء. سنلتقي بعد أربعين يومًا.

بدت جملته عادية جدًا ما عدا الكلمات الأربع الأخيرة. نظرت إلى تاريخ الإرسال، فتبيّن أنها أُرسلت مساء يوم علمنا بالوفاة، مما زاد استغرابي. لماذا حدد أربعين يومًا بالتمام؟ لماذا لم يحضر كما فعل الجميع؟ ألا يعد صديقًا لي هو الآخر؟ أم أنه سيحضر عند انتهاء كل شيء ليتجنب المواساة؟

نفخت الهواء بصوت مسموع، ثم تركت الهاتف ليأخذ قدرًا كافيًا من الشحن، واتجهت إلى غرفة أمي، غير راغبة في التفكير بما قد يقصده أيهم أو غيره.

دخلت الغرفة دون قرع الباب؛ لأنني أعلم أنها لن تفتح لي لو طرقت دهورًا. كانت تستلقي على الفراش في ظلام دامس، مولية ظهرها للباب. تقدمت نحوها وسط العتمة، محاولة تأمين طريقي إليها بقدمي حتى وصلت. جلست على طرف سريرها كما اعتدت دومًا، ثم ناديتها بصوت مسموع:

ـأمي، هل لي بالحديث معكِ لبعض الوقت؟

لم تجبني، وتظاهرت بالنوم رغم علمي بأنها لا تنام. لكنني أكملت الكلام دون انتظار إجابة منها:

ـأمي، أعلم أن الأمر صعب. صدقيني، أعلم فقلبي يؤلمني أنا أيضًا. لكن البقاء في حالنا هذا لن يعيد إلينا فقيدنا! حاولي معي، أرجوكِ. أنا بحاجة إليكِ .

احتضنتها من الخلف رغم عدم استجابتها، وفكرت... فكرت في كل الأشخاص الذين نسمع عنهم في الأخبار، كل تلك الأعداد التي تركب (قوارب الموت) مقابل مبلغ سخي من المال. كل أولئك تركوا أمهات كأمي الآن! وأخوات مثلي خلفهم. بدت الفكرة مرعبة جدًا عند تخيلها، وحاولت استيعاب وجهة نظرهم، لكنني لم أستطع أبدًا.«يفسدون البلاد ثم يتذمرون منها، وهل يصلح الغرباء موطنكم؟» كيف لأخي المتعلم أن ينساق لمثل هذه الأمور، وأن يفكر بهذا التفكير؟ كيف استطاع أن يتهور هكذا حتى انتهى به الأمر في بطون الأسماك؟!

تعكر مزاجي بعد التفكير في الأمر، وبدأ رأسي بالدوران، لذا توقفت ونهضت أغادر غرفة أمي. عند مروري بجانب غرفة المعيشة وفي طريقي إلى المطبخ، سمعت رنين هاتفي. عدت أدراجي إلى مكان الصوت والتقطته. كان رقم أيهم ظاهرًا على الشاشة بوضوح، تعلوه حروف اسمه الأربعة بتناسق. أجبته:

_ألو، نعم؟

ألو، دارين، هذا أنا، أيهم.

_ نعم، أنا مدركة، كيف حالك؟

_أنا من يسأل، كيف حالكِ أنتِ؟

بخير، الحمد لله. _

توقعت أنه سيصمت أو ينهال عليّ بكم من عبارات العزاء والاعتذار، لكنه استرسل:

_دارين، علينا أن نلتقي قريبًا.

_ لأيّ غرض؟

_أنا فقط أريد أن نلتقي. هل ممكن؟

_للأسف، هذا غير ممكن، لديَّ أعمال عليّ إنجازها، أعتذر.

_نزهَة صغيرة أو جلسة في المكتبة، لن آخذ الكثير من وقتكِ.

_مجدّدًا أعتذر، ليس بإمكاني.

ـحسنًا، إذا لن أزعجكِ، اعتني بنفسكِ.

ـإلى اللقاء.

ثم أغلقت السماعة بغضب، ورميت الهاتف على الأريكة وغادرت. كنت غاضبة منه بالتأكيد، لست أقول غير هذا، أغضبني موقفه ذاك؛ فكيف له ألّا يحضر عزاء أخي كما فعل جميع أصدقائي؟ أو على الأقل يحاول رؤيتي أو مراسلتي؟ لست أفهم سبب ردّة فعله الباردة هذه. وما لا أفهمه أكثر هو الدافع وراء رغبته في لقائي. لكن عقلي لا يحتوي على مكان إضَافي لمَوضوع جديد أفكر به، لذا تجاهلت الأمر تمامًا واتجهت إلى المطبخ لأعد شيئًا آكله. فبعد كل تلك الأيام التي لم أتغذَّ فيها جيدًا، ضعف جسمي كثيرًا وافتقر إلى الطاقة.

بعد وقت قصير من دخولي إلى المطبخ، سمعت طرقًا على الباب. خرجت لأفتح، ففوجئت بمن جاء! كان أيهم. استغربت كثيرًا عند رؤيته، وتذكرت حديثنا القصير قبل قليل. عقدت حاجبي ثم سألته:

ـأيهم! ما الذي تفعله هنا؟

أجابني ببلاهة:

ـ أحتاج إلى رؤيتكِ، أخبرتكِ أنَّني أريد أن نلتقي، لكنَّكِ لم تقبلي، ممَّا جعلني أفترض أنَّكِ غاضبة منِّي، لذا حضرت إلى منزلكِ لأبرّر لكِ أمورًا أعلم أنَّكِ تتساءلين عنها.

نظرت إليه بعدما أرخيت ملامح وجهي وقلت:

ـلستَ مضطراً إلى تبرير أي شيء، صدّقني، كما أنَّني لستُ غاضبة منك أيضًا. لم أرد فقط الخروج لأنني لست بالمزاج المناسب.

ـأحقًّا؟

ـأجل.

ـلكنَّني أودّ الحديث معكِ.

نظرت إليه قليلاً بعدما فكرت، ثم قلت:

ـحسنًا، انتظرني في الحديقة المقابلة للبيت، سأغيِّر ملابسي وأخرج.

أجاب مبتسمًا:

ـستجدينَني هناك.

ـحسنًا.

قلتها، ثم أغلقت الباب وعدت إلى غرفتي وأنا أفكر فيما إذا كانت طلعتي معه أمرًا صائبًا أم لا، ولماذا كذبت بشأن غضبي منه. وجدت أنني في الحقيقة وافقت لأنني احتجت إلى الخروج، ربما لتغيير جو البيت الكئيب الذي يأبى التغيّر.

بعدما جهزت نفسي، خرجت إليه فوجدته منغمسًا في هاتفه. أصدرت صوتًا خفيفًا بقدمي عمدًا قصد لفت انتباهه، لكنه لم ينتبه حتى ناديت اسمه. بعدها انتفض ملتفتًا إلي ثم قال:

- رائع، هيا بنا إذًا.

قلت:

- هيا إلى أين؟

- إلى مكان هادئ.

لم أرغب في السؤال عن أي مكان هذا أو عن أي شيء. فقط تبعته أينما وجه إصبعه، والتزمت الصمت خلال ركوبنا في الحافلة، وكذلك هو. كان يشرد باستمرار بينما أغرق أنا في اكتئابي.

نظرت من نافذة الحافلة، وأخذت أتأمل إبداع الرحمن في خلقه، في الدقة التي رُصت بها أوراق الشجر على الأغصان، وفي ثبات السماء وقربها البعيد في الوقت نفسه. في طول الجبال وعدم تساوي انحِناءاتها، في اختلاف الأشخاص وكثرتهم. ثم سألت نفسي:

- أيعقل أن يكون القادر على صنع كل هذا عاجزًا عن تغيير حالك إلى الأفضل؟

وكانت الإجابة: لا، لا يعقل أن يكون عاجزًا. لذا هدأت نفسي قليلًا، وأحسست ببعض الطمأنينة حتى قاطع حبل أفكاري صوت أيهم، الذي يجلس بجانبي بصمت طيلة الطريق، وهو يخبرني بأننا وصلنا إلى وجهتنا. نهضت لأترجل من الحافلة.

عند نزولنا، تابعنا طريقنا بضعة أمتار إلى الأمام وسط منتزه يعج بالناس. أراني طريقًا يقود إلى بحيرة صغيرة بعيدًا عن ضجة العباد وبالقرب من الماء. جلسنا على الضفة بعد أن أبديت إعجابي الكبير بالمكان. ضممت ركبتي إلى صدري ورحت أحدق بالماء، وكذلك هو. لكن هذه المرة لم يلتزم الصمت كما فعل في الحافلة، وقال:

- دارين!

التفت إليه بتساؤل:

- نعم؟

- أنا آسف!

- على أي شيء؟

- على عدم مساندتكِ في أيَّام ضعفكِ، وعلى هروبي المثير للشفقة، وعلى عدم الاتصال بكِ مرارًا، وعلى رسالتي القصيرة التي كان من المفترض أن تكون كما من الرسائل.

أزحت نظري إلى الأمام وقلت ببرود:

- لست مضطرًا! لا تجمعنا وثيقة تنص على أنك ستعاقب إن لم تقم بهذه الأشياء. أنت حر.

- أعلم ذلك، كما أعلم أنك توقعت مني الكثير.

نظرت إليه مجددًا وأمعنت النظر قبل الكلام. كان يرتدي قميصًا رماديًا، مما جعل لون عينيه يماثل القميص، ونظاراته بدت مختلفة؛ القديمة سوداء، وهذه لا. أما ملامحه فكانت تشي بأنه شخص متعب فتك الإرهاق بتقاسيم وجهه.

- نحن صديقان، لا زوجان!

قلتها بجفاء، ثم أزحت نظري مجددًا.

- لكنَّكِ أكثر من صديقة بالنسبة إلي، وأشعر بواجبات تجاهكِ.

- إذًا، ما سبب عدم قيَامك بالواجبات إذا كنت تصرّ؟

- سيبدو لك سبباً ضعيفًا، لكن... أنا أهاب الجنازات!

- تهاب ماذا؟ لماذا؟

- لقد سبق أن أخبرتكِ بوفاة أبي في صغري. حسنًا، منذ تلك الجنازة لم أحضر أخرى في حياتي.

- تهابها أم لا تحبها؟

- أهابُها بشكل لا يُفسَّر، ترعبني أصوات النحيب العالية، وأتقززُ من الطعام الذي يُطبخ فيها. بالمختصر، يمكنك القول إنني مصاب بفوبيا الجنازات.

- حسنًا، لا عليك.

- صُدمت فور سماعي بالأمر، وحزنت كثيرًا لأجلك؛ لأنني أعلم كمية حبك لأخيك من أحاديثك السابقة عنه وعن علاقَتكما الوطيدة.

- أرجوك، دعنا لا نتكلم عن هذا.
- حسنًا، كما تريدين. لكن إن أردتِ الفضفضة، فكلّي آذان صاغية.

بعد كلامه هذا، تعكر مزاجي قليلًا؛ لأنني خرجت لأبتعد قدر الإمكان عن هذا الموضوع، لا للحديث فيه. لكن بعد صمت بيننا دام قليلًا، شعرت بحاجة ماسة إلى الحديث عما أشعر به. لست أعلم لماذا، في كل مرة ألتقي هذا الشخص أحب أن أقص عليه ما يؤرق بالي! ولست أعلم لماذا يستمع إلي دون مقاطعة.

مسحت دمعة تسللت من بين رموشي قبل أن تصل خدي، ثم قلت:

- الموت حق علينا جميعًا، عاجلًا أم آجلًا. ولست معترضة على حكم الله، لكن الألم لا يزول!

أجابني بحزن:

- يؤسفني إخبارك يا دارين بأنه لا يزول أبدًا.

- ألا يخف قليلًا؟

-بلى، يخف مع الوقت، بل يقارب على التلاشي، لكنه يذكّرك بنفسه في كل مرة، في موقف تحتاجين فيه إلى ذلك الشخص، عند مصادفتك لأشياء كان يحبها، و عند مقابلتك لأشخاص يعرفونه. لا ينفك عن تذكيرك بالثغرة التي يحملها قلبك من أجله.

هذا أفضل لأنني لا أريد أن أنسى أحمد. لا أريد أن أقتله مجددًا. أتعلّم؟ في البيت،_ لا أحد يتكلم عنه أو يدخل غرفته. يتجنبون لفظ اسمه قدر الإمكان. إنني أتفهم المهم، لكنّه أمر خاطئ، ما كان أحمد ليحب أن يُنسى.

_تختَلف القلوب ويتشَابه الألم يا دارين. قلوبهم لا تحتمل الحديث عنه، لذا يتجاهلون. لا تشغلي بالكِ بهم وتحَدثي معي أنا عن كل ما تريدين. أنا المستمع لروايَاتك متى أردتِ.

أطلت النظر في عينيه بعد كلامه هذا، وكأنني أبحث عن شيء ينكر ما يقول ويفضح نيته. بحثت عن الشر، الخبث، وعن التظاهر. فتشت عن مراده الحقيقي، لكن كل ما رأيته كان "الصدق". كان الجالس أمامي شخصًا يحمل كمًّا معتبرًا من البراءة بين جفونه، وشعورًا غريبًا بالطمأنينة والارتياح في نبرة صوته.

خفضت بصري بعد أن شعرت بالإحراج لإطالة التحديق بوجهه وقلت:

_شكرًا، أقدّر لك هذا.

قلت جملتي هذه بدلًا من أن أقول له إن دارين التي أمامه لا ثقة لها بمن حولها، ولا رغبة لها بالاستناد على أحد غريب لتشعر بأنها مهمة. فهي مهمة في نظر والدتها، وفي نظر أختها، وسابقًا كانت الأهم عند شقيقها. كل هؤلاء أشخاص يهمهم أمر دارين، وهذا ما يبقيها واقفة رغم أنف الحياة. هي لا تحتاج لأي إضافة لهؤلاء، وقطعًا لا تريد تلوين لوحتها الرمادية لتنتهي إلى

إحراقها كالمرة السابقة، فهي اعتزلت الرسم من الأساس.

بعد هذا، ثرثَرنا كثيرًا دون توقف لساعتين متواصلتين. تحدثنا حتى نفد الكلام منا، وتعسّر على أحدنا مفاتحة الآخر بموضوع جديد، فقررنا النهوض والمغادرة.

بعد أن أوصلني أيهم إلى شارعنا، ودعته ورحت أمشي بخطى متثاقلة، غير راغبة في الدخول إلى المنزل. آه يا ياجور الألم، متى سأتعلم أن أحبك؟ تابعت المشي قليلًا، ثم التفتُّ إلى الخلف لأنني سمعت أحدهم يصفر. لأتفاجأ بأن ذلك الأحد هو سامح المشؤوم!

ـما الذي تفعله هنا مجددًا؟! صرخت به قائلة.

ـ أريد إخبارك بأمر مهم.

قلتُ ساخرة:

ـ دعني أتخطى خبرك السابق ثم ارمني بآخر.

ـ لا، أنا جاد، إنه أمر مهم.

ـ حسنًا، قل ما عندك.

ـ هذا كلام لا يُقال على الواقف، لنتمشّى قليلاً ناحية الحديقة، أرجوك.

ـ ألا تعتقد أنك تجاوزت الحدود قليلاً؟!

ـ سأقول ما عندي وأرحل، أعدك.

نظرتُ إليه بشك ثم قلت:

ـ حسنًا، امشِ.

بعد أن مشينا قليلاً، توقفنا عند أحد الكراسي التي نتوسط الحديقة، ثم قلت له:

ـ حسنًا، تكلم.

نظر إلى الأرض ثم فرك أصابعه ببعض وقال:

ـ أعلم أنَّني لا أروق لكِ كالجميع هنا.

ـ هنيئًا لك، تستطيع قراءة الوجوه.

تجاهل ردي الوقح وتابع:

ـ أنا لا أنكر أبدًا طبيعة عملي غير الشرعية، كما أنني على قدر من اليقين بسوء سمعتي هنا وفي الأماكن المجاورة، مما أكسبني وحدة فظيعة، لأن الجميع يهاب أن يرافقني فيصير مثلي، وهذا كان أمرًا يفطر قلبي بشدة. ربما لا تعلمين، لكنني لست من اختارَ طريقي هذا، الحياة هي من اختارت، فالجوع يعلم السرقة، والبرد يعلم الخياطة، أما كلاهما معًا فيعْلمان الانحراف والوصول إلى المال بأي طريقة.

أردتُ مقاطعته لأستفسر عن سبب قصه لمشاكل حياته عليّ الآن، لكن ضميري منعني، فتركته يتابع.

ـ كنت قد التقيت بأخيك بطريقة محرجة، صادفني في إحدى المرات منغمسا في عملية سطو على إحدى المتاجر... نعم، لا تستغربي، فلستُ أحصل

من بيع المخدرات إلا القليل، يؤسفني أن أنكر خبر ثَرائي الفاحش كما هو شائع عني. كنت أسرق بعض البسكويت لأطعم أختي التي تنام على بطن فارغة منذ يوم، ولعجزي عن دفع ثمنه مددت يدي لسرقته، لكن صاحب المحل كان أذكى من المعتادين، لذا طردني ورماني بكم هائل من الشتائم. بعدها، وأنا عائد إلى البيت، فإذا بأخيك يناديني من الخلف، ناداني إليه ثم ناولني كيسًا كبيرًا به الكثير من البسكويت وأشياء أخرى.

لم أُرِد قبولها في البداية لأنني شعرتُ بالكثير من الإهانة، والأكثر من ذلك شعرتُ بشفقته عليّ. لكنه أصرّ ولم يرضَ إلا أن أقبلها. وعند إعطائي إيّاها، اقترب مني وهمس في أذني قائلًا:

— أعي أنك بحاجة إليها، لكن السرقة ليست طريقة لننال ما نريد.

من الممكن جدًّا أن تجديها جملة عادية، لكن بالنسبة لي لم تكن كذلك. ولم يكن تصرّفه معي عاديًا أبدًا. إحراجي استمر لأيام، خصوصًا بعد مصادفتي له عدة مرات بعد تلك المرة. وعلى عكسه، هو لم يكف عن الحديث معي بكل أريحيَّة، وبعدها صرنا نتقابل كثيرًا، ولم ينفك عن معاملتي بلطف، ممَّا جعلني أبادله المعاملة حتى صرنا صديقين في نهاية المطاف!

أحمد كان صديقي الوحيد يا دارين، كان البئر التي دفنت فيها أسراري، والشخص الوحيد الذي ضحكت معه حتى آلمتني بطني. كان عزيزًا عليّ بقدركِ أنتِ، لذا فرحيله يؤلمني كما يؤلمك أيضًا.

سكت قليلًا ثم تابع:

— خلال الفترة الماضية لم أستطع التوقف عن التفكير في كلامك يوم وفاة أحمد. كنتِ تنعتينه بالخائن وما شابه، لذا قلتُ في نفسي إنك الأحق بمعرفة كيفية اتخاذه قرار الهجرة. لكنني لم أستطع الحديث معك حتى الآن. أحمد ليس خائنًا أبدًا كما تزعمين. هو شخص حالم كبقية الشباب في سنه. بالرغم من مستواه الدراسي وشهادته الجامعية، إلا أنه لم يستطع العثور على وظيفة توفر له احتياجاته كما تعلمين، لذا قرر إضافة شهادة أخرى.

لكن في أعماقه، كان على يقين بأنها لن تنفعه في شيء كالسّابقة. كان لا يتوقف عن قول جملته تلك:

— سأحقق شيئًا كبيرًا يا سامح، لن أرضخ للظروف.

وكنت أجيبه أنا بأنه سيفعل دون شك، لكنني لم أعتقد يومًا أن تفكيره سيؤول إلى الهجرة غير الشرعية. في اليوم الذي أخبرني بما يفكر فيه، تفاجأت بشدة وعارضته كثيرًا. أخبرته بأن ظروفه المادية لا تجبره على الرحيل، وأنها فكرة طائشة ومخاطرة كبيرة. ذكرته بأن لديه عائلة تحبه وتسانده، على عكسي أنا، لا أحد قد يهتم إن اختفيت سوى أختي الصغيرة، وظروفي لا تنصفها كلمة "صعبة". ورغم هذا، لم أفكر يومًا في الرحيل بهذه الطريقة.

بعدها، أوهمني بأنه سينسى هذا الأمر، وأنه لا يفكر فيه بجدية كما اعتقدت. لكنني علمت لاحقًا بحديثه مع الشخص المسؤول عن ترحيل الشباب،

ودفعه مبلغًا كبيرًا مقابل رحلة دون عودة عبر البحر الأبيض المتوسط.

قاطعته قائلة، بعد أن مسحت الدموع من عيني:

— إذًا، الفكرة تغلغلت في أعماق رأسه وأعمَت بصيرته. لكن مهلاً، لحظة! من أين قد يحضر أحمد مبلغًا كبيرًا من المال؟ على حد علمي، هو لا يعمل، ووقت فراغه يقضيه في المنزل أو في التسكع.

— من أجل هذا الأمر جئت إلى هنا. هذا هو الموضوع الذي أردت مفاتحتكَ فيه.

— خيرًا؟

— دارين، والدك هو من أعطى أحمد المال الكافي ليهاجر.

هززت رأسي علامة على عدم الفهم أو عدم السماع وقلت مندفعةً:

— ما الذي تتحدث عنه؟

— كما أخبرتك، أبوك هو مموّل رحلة أحمد. في الليل التي علمت فيها بنيته الخالصة للرحيل، حضر إلى منزلي وعيناه تدمعان. سألته عن سبب حالته هذه، فأجابني بأنه عند مكالمته الهاتفية مع الشخص المسؤول عن الهجرة، سمعه أبوه. أغلق الخط فورًا وحاول تبرير الموقف وتكذيب الكلام الذي سمعه، متوقعًا بأنه سيمنعه أو يعاقبه، لكنه لم يفعل! بل سأله عن كمية المال التي يحتاجها، وذهب لإحضاره له. ومن صدمته، أخبره بأن الرحلة خطرة، ويمكن ألا يعود منها. لكن والدكما لم تبدُ عليه أي علامات قلق، مما فطر قلب

أحمد بشدة. بل أخبره بأنه رجل كبير وسيجد طريقة ما ليصل. ببساطة، هكذا فقط شجّعه على المضي قدمًا، دون تحذير أو عقاب أو خوف عليه من الموت.

لم أقدر على استيعاب طريقة تفكير والدك. مع كل احترامي، الموقف أدهشني كثيرًا. بدل أن يمنعه ويحجِزه في المنزل، ساعده؟ انزعجت من الأمر كثيرًا، وكذلك أحمد، لكنه سرعان ما تناسى عدم اكتراث والده به وركّز على سعادته بالمال. أما أنا، فاستمرَرت في محاولة منعه مستعينًا بكل الحجج والبراهين، إلا أن عنادًا كعناد أخيكِ هو حتمًا أمر لم أشهده يومًا.

المهم، أنا فقط أردت إحاطَتك علمًا بسبب وكيفية إقدامه على هذا الأمر. رأيت أنك الأحق بالمعرفة.

بعد أن أنهى كلامه، حاولت الرد عليه، لكن فكي كان متصلبًا بحق! أحاطني شعور أعرفه جيدًا، شعور صار قلبي معتادًا عليه، لكن عقلي أبى أن يألفه: الخذلان والخيبة الكريهة.

نهضت مباشرة دون وداع أو مقدمات، واتجهت نحو الأمام أسير، أو بالأحرى أرغم قدمي على السير، بينما يتردد صوت سامح الخافت في عقلي مناديًا: يا دارين! لكنني استمريت في التقدم حتى اختفى الصوت تمامًا، ولم يتبقَ سوى صوت طنين قلبي وأذنيّ.

سألته في نفسي كما اعتدت أن أفعل:

"أي قلب هو الذي بين أضلعك يا عبد الحميد؟ مما صُنع أو وفق أي معايير؟ ما عدتُ أعرفك ولا أعرف نواياك. أ يدفع الآباء ثمن رحلة موت أولادهم يا رجل؟ كيف لم ينتفض قلبك لسماع فكرته؟ كيف لم تحبسه في غرفته وتقاتلِه ليعزفَ عن قراره؟ أما كان ذاك الشخص قطعة منك يا عبد الحميد؟ أما كان ولدك البكر وقرة عينك حتى تسمح له بالرحيل؟ كان من المفترض أن تكون راجح العقل أن اختفَ وزن عقله هو أن تكون زاوية الارتماء له عند ضعفه ومخفّف المشقة، فلماذا زدت الطين بلة؟

رميتُ بثقلي على كرسي قابع تحت ظل شجرة الزيتون التي تتوسط المنتزه، أسْحب الهواء بصوت عالٍ، أرغمه على التغلغل في أعماق رئتي ليُخفّض خفقان قلبي. عقلي لا ينفك يكرر مشهد بكائه فور علمه بخبر وفاة أحمد، وجزء مني يخبرني بحتمية أن تكون دموعه التي أمطر بها وجهه يوم الجنازة تمثيلاً. فما عادت عيناي المجردتين تملكان القدرة على التمييز بين الحقيقة والزيف.

بعد أن استرجعت وتيرة خفقان قلبي الطبيعي، نهضت وغضب العالم أجمع يحكم قبضته على رقبتي، يأبى الإفلات، ويوجهني نحوه فقط. سرت بخطوات متسارعة ولا أنفك أتخيل وجهه أمام عيني والكلام الذي سأوجهُه له.

طرقت الباب بعنف ونفاد صبر حتى شعرت بوخز في أصابعي. فتحت لي منى بعدها، وقد بدت آثار الخوف واضحة على وجهها، ثم سألتني بقلق:

ـ دارين، ماذا هناك؟ هل أنتِ بخير؟

تجاوزتها واندفعت إلى الداخل صارخة:

ـ أبي، أبي، أين أنت؟!

تبعتني هي، لا تتوقف عن سؤالي عما يحدث، لكنني فضّلت عدم محادثتها واتجهت نحو غرفته. طرقت الباب بعنف، وبعدها فتح وهو مستغرب من حالتي. رمقني بنظرة غضب وقال متجهماً:

ـ ما الذي حدث؟ ماذا أصابك لتَطرقي الباب وتتجولي صارخة في البيت بهذا الشكل؟

وقفت أمامه عاجزة عن السيطرة على دموعي التي انهمرت فور رؤيته، ثم قلت بحزن واضح:

ـ أبي، هل لديك فكرة عن كيفية مفارقة أحمد للحياة؟

أجابني ببلاهة:

ـ ما الذي تتحدثين عنه؟ لقد قلنا إننا سننسى هذا الموضوع، إنه قضاء وقدر.

لكنني تجاهلت كلامه وتابعت حديثي الدامع:

ـ توفي غرقاً يا أبي. انقطع نفسه تحت الماء بعد أن قاوم كثيراً، ثم نهشت الأسماك جثته كأنها حيوان! فارق هذه الدنيا وحيداً تماماً في عرض المحيط.

أخفض رأسه، وقبل أن يفعل، لمعت عيناه بالدموع. لكنني سحبت زفرة قوية ثم أكملت:

ـ كيف ذهب أحمد يا أبي؟ تلك الرحلات باهظة الثمن، من أين له بالمال الكافي؟

رفع رأسه بسرعة، ودهشة ممزوجة ببعض الخوف بدت على ملامحه الرمادية، ثم قال متلعثماً:

ـ يكفي هذا الآن ما حصل قد حصل، هل تعترضين على حكم الله؟!

ـ الله يشهد أن لا اعتراض لي على حكمه، لكن حتماً لي بعض الاعتراضات على أفعال عباده. لم تجبني يا أبي، من أين له بالمال؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ توقف عن التمثيل وقل الحقيقة.

ثم تابعتُ صارخة، ودموعي تأبى التوقف عن السيلان:

ـ أنت من أعطاه المال ليشتري تذكرة موته. إياك أن تنكر هذا!

شهقت منى بصوت عالٍ وغطت فمها بيدها من الصدمة، ثم نظرت إليه بعدم تصديق وقالت:

ـ ما الذي تقوله أختي يا أبي؟ هل هذا صحيح؟

ثم سألته سيرين، التي لم تنبس بكلمة من قبل:

ـ عبد الحميد، ما الذي تهذي به دارين؟

نظر إليهما بتوتر شديد ثم قال:

ـ نعم، أنا من أعطيته المال، لكنني لم أكن على علم بما سيفعله به.

أجبته ضاحكة بمرارة:

ـ إياك والكذب، إياك! أحمد، ليلة حصوله على المال منك، ذهب إلى سامح وحكى له عن الأمر. وسامح بدوره أخبرني.

نظر إلي بدهشة، ثم أجاب:

ـ نعم، أنا من أعطاه المال، ونعم، كنت على علم بنيته للهجرة. ما الذي سيغيره كلامك هذا الآن؟

صرخت مني باكية:

ـ لا أصدق! يا إلهي، كيف تفعل أمراً كهذا؟! هل تراه مناسباً؟

ثم أضَافت سيرين:

ـ عبد الحميد، كيف تفعل هذا؟ إنه ابنك! كيف ارتاح ضميرك بعد وفاته؟

كان يستمع إلى الأسئلة المتتالية والاتهامات دون تأثر ظاهر، بدا وكأنه يستمع إلى إحدى أغانيه المفضلة. وقبل أن أوجه له أي كلام، سمعت صوتاً لم يزر أذني منذ مدة، صوتاً محبباً إلى قلبي أكثر من كل الحاضرين: صوت أمي.

ـ ما الذي تتحدث عنه؟!

قالت جملتها تلك، فالتفتُ الجميع نحو مصدر الصوت مندهشين. كانت تقف أمام باب غرفتها مرهقة تماماً، شعرها يتطاير في الهواء، وعيناها قد انغرَستا في وجهها المدور، فبدتَا سوداوين بدلًا من خضراوين. ثيابها لم تغيّرها منذ مدة.

تألم قلبي كثيراً لحالها، لذلك تركت ما كنت أهمّ بقوله له، واتجهت إليها ثم قلت، بعد أن مسحت بقايا الدموع عن خدّي:

ـ أمي، كيف تشعرين؟

نظرت إلي كأنما تتأمل تقاسيم وجهي التي لم تدقق فيها منذ مدة، ثم قالت:

ـ ما الذي كان يقوله؟

بعد سؤالها هذا، فهمت أنها سمعت حديثنا. شعرت بحيرة وصدمة، وأدركت حجم المصيبة التي فعلتها. نسيت أمر أمي واحتمالية أن تسوء حالتها بعد سماعها هذا الخبر، وتهوّرت في الحديث معه داخل المنزل وبصوت عال.

أجبتها مطمئنة:

ـ لا شيء، كنا نتناقش فقط، لا شيء يدعو للقلق.

لكنها لم تقتنع، وكررت سؤالها بصوت عالٍ أخافني:

ـ ما الذي كان يقوله ذلك الواقف هناك؟!

ثم نزعت يدها من خاصرتي واتجهت نحوه بغضب، وضربت على صدره بعنف، صارخة:

ـ هل صحيح ما سمعته؟! أنت من أعطى المال لابني ليشتري موته؟! أجبني، لا تخرس!

لكنه لم يجبها، ولأوّل مرة منذ أن كلمته، أخفض رأسه ولم يملك الجرأة الكافية للنظر في عينيها، ثم قال:

ـ إنني آسف يا فاطمة، لم أتوقع أن يفارق الحياة!

أجابته ضاحكة بسخرية:

ـ آسف؟ عفواً، ولكن في أي أمر سيساعدني أسفك المثير للشفقة؟! هل سيعيد ابني إلى حضني أم سيشفي حرقة قلبي؟ أخبرني عن فوائد أسفك هذا يا زوجي العزيز! وأخبرني عن الطينة التي شُكّل منها قلبك الكريه. ألا يوجد ضمير لديك يحكم الإغلاق على رقبتك ليلاً؟! أخبرني، أيّهم من الرجال أنت؟ وأي أب هذا الذي يبعث بولده إلى عرض المحيط ليموت؟ تكلم، أرجوك! إنني أموت فضولاً لمعرفة الجواب!

ثم انتقلت من الغضب إلى الحزن، لتنفجر مقلتاها بشلالات من الألم. تابعت توجيه الكلام إليه، وهي تدفعه باستمرار إلى الخلف قائلة:

ـ ألم يكن ذاك ولدنا الأول يا عبد الحميد؟ أما كان عينك التي ترى بها من قبل؟ كيف لم تعانقه ليعود إلى رشده عند ضياعه؟ كيف لم تخبره بأنه ليس وحيداً، وتعدد له أحبّاءه؟ ولماذا لم تسحبه من يده وتحضره إليّ إن عجزت أنت عن ذلك؟

أجابها باكياً:

ـ صدقيني، لست أعلم لماذا فعلت هذا. ظننت حينها أنني أحقق له حلماً.

ـ أي حلم هذا الذي ينتهي به إلى الموت غرقاً، يا رجل؟ أما كان باستطاعتك إرساله تحليقاً في طائرة ما بأمان إن كان يشتهي سفراً أو بلداً ما؟

أبدى لك القارب وسيلة لتحقيق الأحلام؟

ـ لست أعلم، أنا آسف.

لكنها لم ترضَ أن تسكت عن توبيخه وتوجيه الكلام القاسي إليه، حتى لاحظت أنها بدأت تخفف من صراخها وتتشبث بطرف ذراعي. وفي لحظة ما، أمسكت رأسها بيسارها وأدَارته نحوي، ثم سقطت مغشياً عليها!

بعدها عمّ البيت فوضى كبيرة. أنا ومنى نصرخ خوفاً على والدتي ونهزّها ذهاباً وإياباً علّها تستفيق، وأبي يهرول بين المطبخ وغرفة المعيشة يبحث عن حل ما، أما سيرين فاتصَلت بالإسعاف. وبعد ربع ساعة من النحيب والندم الذي تآكل كياني، وصلت سيارة الإسعاف. لم تكن المرة الأولى التي أركبها؛ فليلةٌ كهذه تشابهت مع ليلة سابقة خرجت فيها كارهة لشخص ما، أما هذه المرة فكُرهي لنفسي فقط.

ركبنا السيارة أنا ومنى، بينما لحق بنا سيرين وأبي بسيارتهما.

فور جلوسي وسط الممرضين، اشتد بياض الصورة أمامي فجأة، وتسارعت نبضات قلبي بشدة، ثم شعرت بثقل في رأسي وأعضائي، وبعدها لم أشعر بشيء.

أفقت بعدها على جمع من الأصوات العالية. وقبل أن يتضح مصدر تلك الأصوات، فتحت عيني ببطء شديد وحدّقت بأول شيء رأيته: "السقف"، الذي تبيّن لاحقاً أنه سقف غرفة ما في المستشفى.

حَرّكت عنقي نحو اليسار، أتفقد يدي التي تؤلمني بعض الشيء، فرأيت إبرة تنغرز في منتصفها وتتصل بأنبوب يحمل سائلاً شفافاً يقوده إلى كيس معلق فوق رأسي.

ثم أدرت رأسي إلى اليمين، فرأيت شخصًا يرتدي بذلة بيضاء، يفعل شيئاً في خزانة ما، وتساعده فتاة لاحظتني فورًا. ابتسمت بلطف وقالت:

ـ كيف تشعرين الآن؟

حرّكت فمي بصعوبة لأجيبَها قائلة:

ـ ما الذي حدث؟

ـ لقد ارتفع ضغطك قليلاً، ممَّا أدَّى إلى فقدَانكَ الوعي لأربع ساعات.

قلت مندهشة:

ـ أربع ساعات؟

استعدت وعيي بالكامل وتذكَّرت آخر مشهد رأيته قبل إغمائي. سألتها مند فعة:

ـ أين أمي والبقية؟ هل هي بخير؟

ثم هممت بمحاولة الاعتدال وسحب الإبرة المنغرزة في جسدي، لكن الممرضة لم تسمح لي ورفضت رفضاً قاطعاً أن أترك المستشفى، وادعت أن عليّ إكمال كيس السيروم قبل الرحيل. لكنني لم اقتنع بما تقوله، وانتابني شعور سيئ، وما أضفى لقلبي شكا في أن أمراً ما قد حدث هو عدم إجابتها

على سؤالي عن أمي. لذا استمريت في المقاومة والصراخ عن حال أمي، لكنها لم تكترث لأمري، واستمرت في محاولة تهدئتي مع الطبيب. بعد فشلهما في التحكم بي، أمسك الطبيب بذراعي وحدّق بي بجدية، ثم قال:

ـ عظم الله أجركِ أيّتها الشابة، فعلنا ما بوسعنا، لكن والدتكِ فارقت الحياة جراء نوبة قلبية حادة.

بعد جملته تلك، هدأت... هدأ غضبي وسخطي، وعيناي عن الدموع قد كفت، وقلبي توقف عن الخفقان بسرعة. اختفى خوفي الشديد من الخسارة الذي لطالما رافقني طوال حياتي وجعلني أعيشه بكل ما فيه مجدَّدًا! مرَّة أخرى تحققت الكوابيس، وقفزت من خيالي بعنف إلى الواقع. هذه المرة لم ينزلق قلبي من بين أضلعي، بل تحطَّم وسحق حتَّى صار مسحوقًا لا يرغب به أحد، وانقسمت أضلعي إلى ضليعات صغيرة بحجم البازلاء، وانكسر عمودي الفقري، لكن أحدًا لم يسمع له صوتًا. ذابت مقلتاي، لكن لا شخص قد لاحظ، كنت أنا من تعيش الانكسار والاختفاء البطيء بعد كلامه ذاك. كان كل ما شعرت به هو أنه تم التخلي عني للمرة الثانية.

هل أبكي يا أمي فتعُودين؟ أخبريني إن كانت المياه المالحة تعيدك لي، فأبكيك قرونًا، أم أكتُبك على الورق فتقفِزين منه إليّ لتحْتضنيني؟ قولي فأكتُب مقدّمة ابن خلدون مجدَّدًا، بل سأفُوق صفحاتها عددًا، فقط أخبريني عن الطريقة، فوالله ما عاد بجسدي جزء يقدر على حمل عبء كهذا. اليتم

قاسٍ يا أماه، والله قاسٍ. كنت البارحة ابنة فاطمة، واليوم يلقبونني باليتيمة فاقدة الوالدة، فاقدة السند والملجأ غير المشروط. إلى أين الوجهة بعد الآن يا أمي؟ أنتِ قولي! عند أي صدر الارتماء؟ وإلى أي كتف الانتماء منذ اليوم؟

غادرت سريري ببطء شديد بعد أن سمح لي الطبيب بذلك. نهضت أحاول مقاومة ثقل رأسي وضباب عيني وطنين أذني الذي لم يترك لي مجالاً لأستمع إلى الأصوات الأخرى. بحثت خارجاً في الرواق عن هواء يملأ صدري، فوقعت عيناي على شابة تقاوم بعنف عدداً من الممرضين. شاهدتها تصرخ بهستيرية وتنتحب كمجنونة ترفض إبر المهدئ أو شخصاً ما يحاول الانتحار عبر قطع حباله الصوتية بالصراخ العالي. كانت تلك منى، شقيقتي. وبجانبها فتاة واضح هزلها تفترش بلاط المستشفى، وتحكم إغلاق فمها بيديها بينما تمطر عيناها بغزارة! سيرين كانت تبكي على والدتي، ويقف على رأسهما رجل قد قطع به العمر جسر الخمسين، فاشتعل الرأس شيباً، وعلى ما يبدو أن الصدر اشتعل ندماً! ذاك كان أبي. فور أن وقعت عيني عليه، استيقظت حواسي كلها، وداهم عقلي عدد وفير من الأسباب التي تسمح لي بدق عنقه في هذه اللحظة بالذات، لذا ركضت نحوه كفَاقدة عقل تجري وراء غريب، ثم توقفت أمام عينيه، استشيط غضباً ودخان يتصاعد من أذني وأنفي يحجب الرؤية عن عقلي.

ـ أنت السبب!

قلتها صارخةً به بعد أن غرزت سبابتي في صدره بعنف.

ـ أنت القاتل! أنت السبب فيما حدث! أنت المتسبب الوحيد، أيها القاتل! ما كانت لتَمُت لو لم تعلم بفعلتك تلك، وما كان أحمد ليرحل لو لم تفعلها. أنت قاتل أمي وأخي!

وجهت له كما من الاتهامات الصحيحة، منتظرة منه رد فعل قوي غير الوقوف والندم وشلالات الدموع المزيفة، لكنه لم يفعل. وبعدما عم صراخي أروقة المستشفى، ترك الممرضون منى المتمردة، وانشغلوا بي يحاولون عبثاً إبعادي عنه وحثّي على التزام الصمت، لكن لا يد كانت لتمنعني عنه، ولا كلماتهم المثيرة للشفقة. لذا لجؤوا إلى استعمال إبرة مهدئة، والتي نجحت بكل تأكيد في إخراسي.

بعدها استيقظت على نفس السرير وعلى نفس الأصوات. ولشدة قوة الإبرة، اعتقدت أن ما عشته قبلها كان حلماً، وأن أمي لم تغادرني كما اعتقدت! لكنني استوعبت بعد دقائق أن موتها كان أكثر الحقائق ألماً، وأدركت أنه ليس حلماً. فبكيت! بكيت مجدداً لِضعفي وعجزي الشديد. بكيت لأن ما بيد الفاقد سوى الدموع على فقِيده، بكيت على أطفأ حرقة قلبي والتهاب كبدي عليكِ يا أمي. قضيت ليلتي أسبح في الدموع وتمسحها وسادتي عني. أذرف الألم لساعات طويلة، ولا أنقطع عنه سوى لاستنشاق بعض الهواء السام حين تخنقني الشهقات العالية.

صدقيني يا أمي إن قلت بأن نصف بكائي لم يكن على رحيلك. لا، بل كان على رحيلك وأنتِ على حزن! غادرتنا جراء سكتة قلبية تسبب بها الحزن والألم، زارك ملك الموت عندما اشتدت عليك الآلام، وعجز قلبك العفيف عن الاحتمال، فقرر أن يتوقف عن العمل ويستقيل. أن يسكت للأبد، لا قليلاً. لكنني والله لست ألومه، فهو ظل يُهان ويحتمل لوقت طويل. قلبك الذي استُبدل ورُمي كقارورة مياه فارغة، لكنه صمد لأجل من به. فماذا إن مات من به؟ فلمن الصبر بعد الآن؟ بكيت حسرة على الأيام التي وعدتك بها. قلتُ: سنغادر بيتاً كهذا ونبني بأنفسنا سعادة نكتفي بها وبيتاً يخصنا. فقلتِ: نعم. أخبريني الآن، أي سعادة ستملأ قلبي بعد أن تنازلت عنه، وأي بيت هذا الذي سنجتمع فيه؟ ومع من عساني ألتقي؟

أدرك حق الإدراك أن الندم لا يعيد المفقود، لكنني نادمة، بل أكثر البشر ندماً على الإطلاق. يتآكلني ال "لو" كما يتآكل روح الملح الجلد.

لو أنني لم أعد إلى البيت يوم غادرته أنت، لو أنني وقفت ضد الرجل الذي لمس خدك، ولو خنقت تلك حين اتهمتك، وألف لو لأنني سمعت كلامك وتغاضيت عن ما لا يجب التغاضي عنه حتى وصلنا إلى هنا. ويا ليتك لم تسمعي كلامي عن أحمد ولم تكن تلك اللتر التي أفاضت الكأس.

لكن لا الكلام يعيد ولا ذبحة قلبي.

بعد ليل كاد لا ينتهي، لم أضع به جفناً على صاحبه، طلع نهار الدنيا وبقيت عتمتي أنا مستمرة. دخل علي ذو مئزر ناصع البياض وأخبرني بإمكانية مغادرتي إن تمكن مني الملل. فرغبت في إخباره بأن الألم هو من نال مني، فهل من دواء؟

خرجت بعدها تاركةً أنهاري المجففة على وسادة المستشفى، متأسفة لها لعجزي عن اصطحابها معي، فهي وأنا قد ألفنا بعضنا بعد الليلة الماضية. غادرتها أجرّ أذيال عجزي خلفي، وعلى كتفي يتربع الحزن، أما القلب فيُحيطه الألم ويغرسُ مخالبه في المنتصف.

خارجًا، اجتمع أشخاص من العائلة نتذكرهم عيني ولا يعبأ بهم عقلي. معظمهم لا ألتقِيهم سوى في حالات كهذه، ونادرًا ما نرى بعضنا في الأعياد. جاؤوا جميعًا بعد تلقيهم الخبر. منهم من أحاطني بذراعيه يبكي ويردد على مسمعي أن أصبر على مأساتي، ومنهم من يهتم بإجراءات الجنازة، ومنهم صويحبات قلبي يتدافعن لاحتضاني.

الطريف في الأمر أننا لم نرمِ الأكواب التي شرب منها ضيوف الجنازة الماضية، وها هي الحياة تهدينا أخرى، فورا، قبل أن يبرد الجرح السابق. ولكن ما العمل إن كنا لا نطيق الصبر ولا الصبر أطاعنا؟ نقول: قدر الله وماشاء فعل.

بعدها غادرنا المستشفى عائدين حيث نعود دومًا... إلى البيت! البناء الذي غادرته والهلع يسيطر عليّ، وعدت إليه منطفئة تماماً. أقاموا جنازة ثانية بكى فيها نفس الأشخاص، وتكلم فيها نفسهم، ثم غادروا كما يفعلون دائماً، تاركين الجرحى الحقيقيين ينفردون بجراحهم.

خاب اعتقادي بأن لا ألم يضاهي ألم فقدان الأخ، واتضح أن فقدان الأم أشد الابتلاءات قسوة ووجعاً!

قضيت أيامي الضعيفة أنتحبُ ليلاً وأشرد نهاراً، و تأرجحت بين تقبّل وعدم تصديق لما حدث. لمتُ أبي ولمتُ نفسي واتهمت الجميع، لكن ما كان أي من هذا يجدي نفعاً ويطفئ النيران السوداء التي اشتعلت في صدري.

كنت أتجول بغرفتها وأقبل ثيابها و أشيائها وأبكي، أبكي حتى أفقد الوعي.

بعد أيام طوال، وقُرب مرور الشهرين على رحيل عمود إنارَتنا، قررت أن أشعل شمعة لأرى طريقي فقط، وغادرت حزني لأن دموعي عذابٌ لها، وما أردت لها العذاب يوماً. قررت أن أمضي في الحياة كما مضيت سابقاً، لكن دون كتفين! فالكتِف الأول أخذته المياه المالحة، والآخر قرر الاستقالة من عمله. مضيت لكن ناقصة، ولن أكتمل يوماً!

خرجت يومها لأنني اشتقت لرائحة تبعث في قلبي سروراً، رائحة الكتب، ولأنني أطلت عنها الغياب، عدت إليها فور استعادتي لنفسي.

فور دخولي إلى باب المكتبة، سلمت على العم رشيد وكلي تصنع، أتَصَنع الابتسام بصعوبة بالغة، وكذلك هو.

ـ أطلت الغياب يا دارين، أنا والرفوف اشتقنا لك!

قلت ممازحة:

ـ اعذرني يا عم رشيد، فالحياة هاجمتني وأطاحت بي أرضاً، فتعذر عليّ الانشغال بمسائل أخرى.

ـ وهل دافعت عن نفسك يا ترى؟

ـ إنني أحاول كما ترى.

ثم ضحك هو وضحكتُ أنا لأول مرة منذ وقت طويل. بعدها غادرتُه لأنزوي على طاولتي المفضلة، وبيدي كتاب لكاتبي المفضل "أدهم شرقاوي" بعنوان "حديث الصباح". قرأتُ منه البعض قبل أن أشعر بأحدهم يلمس كتفي الأيمن، فاستدرتُ لأراه، فوجدته "أيهم". التفتُّ إلى الوراء، فإذا به أيهم يقف متصلباً على وشك الانهيار. لاحظتُ ذلك من رجفة شفتيه وعينيه التي سال مدمعِها فور التقائها مع عيني. لوهلة اعتقدتُ أنه سيسقط أرضًا مغشياً عليه، أو سينفجر باكيًا كرضيع نزعت منه زجاجة الحليب. لكنه سحبني بقوة نحوه واعتصرني في حضنه كأنه الأخير. لم أفهم غايته تمامًا من هذا التصرف، لكنه بالتأكيد لجأ إليه لانعدامه من الكلمات، لأنه يعلم أن الكلام.

ما عاد يشفي الآن، وإن لم يكن كذلك من قبل. كأنه يعتذر بالنيابة عن العالم أجمع في تلك الضمة ويقول: "إياك والحزن". شعرت بحرارة دقات قلبه تتسارع وتتسابق مع دقات قلبي. لم أقاوم ولم أبادله. التزمت فقط بوضعية الوقوف التي وجدني عليها، منسدلة الذراعين. لكنه قال جملة جعلتني أرفع ذراعيّ وأحكم قبضَتي حول وسطه بكل القوة التي تبقت لي: "لستِ وحيدة، ولن تكوني يومًا. أنا معك بعد الآن".

صدقت كلامه ذاك بكل ذرة وعي فيّ. لم أهتم إن كان كذبًا، أو تلاعبًا، أو حتى مؤقتًا. ما يهم هو وجوده في اللحظة التي احتجتُ إليه فيها.

بعدما أفلتني، جلسنا على الطاولة متقابلين لمدة خمس ثوانٍ أو أكثر، ليستوعب كل منا ما حدث قبل قليل. بعدها رفع رأسه نحوي، نظر إليّ وقال:

- إنني آسف حقًا. لا أدري ما الذي دهاني عند رؤيتك. أعتذر إن كنتُ قد تجاوزتُ حدّي.

- لا تفعل، لا بأس.

ارتخت ملامحه كنوع من الاسترخاء وابتسم قليلاً. تنهد ثم قال:

- حضرتُ جنازة وَالدتك، و أردتُ رؤيتك، لكنهم لم يسمحوا لي.

- نعم، أخبروني أنك كنت هناك. آسفة، لم أستطع الخروج، لكنني استغربتُ قليلاً، لأنك تهاب الجنازات، فكيف تشجعت هذه المرة؟

- بالتأكيد، أتفهم. أستطيع تصور سوء حالتك. لكنني أردتُ أن أكون بجانبك هذه المرة. هذه المرة كان ألمك أكبر من خوفي. تزعزع كياني عند سماعي خبرًا كهذا، ودعوت الله أن يخفف عنك حزنك أو يستأصله. بعدها، ترددتُ إلى المكتبة كل يوم طيلة الشهرين الماضيين، على أمل أن تحضري يومًا. وكان لي الحظ أن ألتقيك اليوم وأطمئن على حالك. وعلى ما يبدو أنك بحال أفضل.

- لن أكون أفضل أبدًا.

- بلى، ستفعلين!

رفعتُ نظري نحوه، قوسّتُ حاجبي في تساؤل وقلت:

- ألستَ أنت من أخبرني بأن الألم لا يزول؟

- نعم، لكنكِ أقوى من أي ألم، وأقسى من أن تطيح بك الحياة أرضًا من الضربة الثانية.

- انكسر ظَهري يا أيهم.

نزع نظارته الطبية لتظهر عيناه الزمرديتان، ثم مال بجذعه قليلًا إلى الأمام ليقترب مني مبتسمًا وقال:

- سنصلحه معًا!

- لستَ مضطرًا.

- أريد هذا.

- أنتَ لا تستوعب ما يحصل، الحياة ليست بتلك السهولة التي تعتقد.

- بلى، هي كذلك، بل إنها أتفه مما تتصورين. الحياة خصم شرس يحاربنا بكل ضراوة، وينتظر منا الاستسلام. تسرق منا الأحباء وترمينا بالمشاكل تلو الأخرى، لكننا لا ننكسر عند كل ابتلاء، بل نزداد قوة وصلابة.

- بل ضعفًا!

- انظري إليّ، أعلم أن ما عشتهِ صعب، وما سوف تعيشينه سيكون أصعب. صدقيني، أعلم. أما عن الحزن والدموع، فهما لا يغيران الأقدار، لكنهما يهلكان الجسد. أتريدين الهلاك؟ لم تكن أمكِ ولا أحمد ليرْغبا في رؤيتك هكذا، ضعيفةً ومستسلمةً.

- إنني أحاول.

- إذًا، لا تكفي عن المحاولة، وأنا سأحاول معكِ.

- أخبرتكَ بأنك لستَ مضطرًا.

- وأنا أخبرتك بأنني أود ذلك.

تشكلت على وجهي ابتسامة خفيفة دون قصد بعد كلامه ذاك، ثم تابعنا الحديث عن أمور عشوائية لمدة ساعتين. أحسستُ بعد جلستي تلك معه أنني غادرتُ أفضل حالًا.

قضيتُ أيامي بعدها بين المكتبة والجامعة، أدرس وأطالع، وأنام ليلًا في البيت الذي ما عدتُ أتجول فيه ولا أستمتع بصحبة سكانه. كنا نحن الأربعة

ننام تحت سقف واحد، لكن بقلوب ومشاعر شديدة الاختلاف. ما عاد يستهويني الحديث في غرفة المعيشة، و كرسي جدتي احتله الغبار. السيد أبي توقف عن عمله خارج الولاية، وصار جلوسه في البيت أمرًا محتمًا. يتربع على الأريكة طيلة النهار، ويسهر خارجًا نصف الليل، ولا يعاتبه أو يهتم لأمره أحد سوى زوجته الوحيدة بعد أن كانت الثانية.

أما منى، فما عادت تشبه منى. يرافقها أمير في أيامها، و يؤنسها عبر الهاتف في لياليها. يساندان بعضهما البعض، و يكتفيان بأنفسهما من الجميع، حتى مني! فجأة قلت أحاديثنا الوفيرة في السابق، وتشكل جدار جليدي عملاق بيننا. لكنني لا ألومها، فأنا التي بادرت بالالتزام بالصمت، وما كان لها سوى مبادلتي به. رغم ذلك، نعلم أنا وهي أننا نكن حبًا عظيمًا لبعضنا، وكلتانا عاشت أيامًا سيئة، ولا يُلام المرء على تصرفاته بعدها.

تبادلنا أطراف حديث قصير ليلة أمس، أخبرتني فيه أنها وأمير قررا تقديم تاريخ زواجهما الذي كان من المفترض أن يُعقد بعد عامين إلى الشهر القادم. عند تعبيري عن صدمتي بقَرارهما، أخبرتني أن حال البيت لا يُطاق بالنسبة لها، وأن كل ركن فيه يذكرها بأمي وأحمد. لم يكن لدي اعتراض على قرارها، لكنني حزنت كثيرًا؛ فمُؤنستي الوحيدة ستغادرني هي الأخرى، وبهذه السرعة. لم أستطع تمالك نفسي وسألتها دامعة العين أن تبقى قليلًا، فإنني سأعيش وحدة موحشة بعدها ولن يبقى لي أحد. فبكت بشدة وقالت

معتذرة:

- والله لو بيدي لأخذتك معي، لكنها الحياة يا دارين! قدرُ الفتاة أن تغادر بيتها، كم تمنيت أن أغادر وأمي وأحمد هنا، لكن الدنيا كانت تخبئ لنا ما لا نتوقع صدقيني، لقد ضقتُ ذرعًا بهذا المكان، ولم يعد لي نفس أتحمله. سامحيني يا أختي.

- لا عليكِ، فقط كوني سعيدة بعيدًا جدًا عن هنا، ولا تنسيني. تذكري دائمًا أن لديكِ دارين لتحبكِ أيضًا!

ثم احتضنتها وبكينا حتى نمنا.

بعد شهر قضيناه في شراء الأمور التي ستأخذها معها، تم عقد قرانهما في آخر الشهر دون حفل زفاف، فلا رغبة لأحد منا في الحفلات حتى الممات. مضى كل شيء في صمت وفرحة خفيفة، حتى أننا لم ندعُ الكثير من الناس، فقط نحن وخالاتي والعائلة، وهو ما لم تمانع به عائلة أمير.

ودعناها بعد الانتهاء بالدموع الغزيرة، كما تُودع كل العرائس. رؤيتها في فستان ناصع البياض بدل أمي كان أمرًا فطر قلبي. وخروجها من البيت دون أحمد كسر ظهري، لكنني تمالكت نفسي ولم أشأ تحويل فرحتها إلى عزاء مجددًا، فقد ضاقت روحي من الجنازات. سافر بها أمير بعيدًا جدًا عني،

أخذها إلى كندا ويفكران في الاستقرار هناك. سعدت لسعادتها، وحزنت لوحدتي.

بعد ذهابها أصابني المرض، فلازمت الفراش. الأطباء قالوا إنني أشكو من فقر دم، أما أنا فقلت إنه الحزن. كنت أحاول بشدة في النهار، ثم يأتي الليل فأنهار مع ظلامه. لازمتني من كانت في السابق عدوتي، تحضر لي أدويتي والطعام، وأيهم لا ينفك يتصل ويراسل، باذلًا قصارى جهده ليكون بجانبي، وكذلك منى تتصل أحيانًا لتطمئن على حالي، لكن استجابتي كانت ضئيلة.

كنت أختنق عند مروري بغرَفهما، أتخيل الأصوات وأتصور المشاهد حتى خلال استيقاظي. أنادي "يا أمي" طوال الليل، وعادت الكوابيس رفيقًا لا يغادر وسادتي. انقطعت عن دراستي والمكتبة وكل نشاطات الحياة السابقة، بعد أن قاربت على العودة إليها، وفضلت التخلي. لكن جسدي فضل المقاومة مجددًا، وقلبي أحب التقرب من الله؛ لأنه الشافي من كل ابتلاء والقادر على تغيير الحال.

دعوتُ ذات ليلة أن يشفي قلبي من ألم ما عدت أطيق عليه صبرًا، وما خيب ربي طلبي يومًا. ولأول مرة بعد ستة أشهر من الحادثة، باشرت رحلة العلاج النفسي عند طبيب مختص. صرت أستيقظ في الثلث الأخير من الليل أناجي ربي، وأنام لأعيد الكرة عند الفجر. أزور طبيبِي مرتين في الأسبوع، ونتحدث في جلساتنا عن الأمور التي تزعجني وكيفية تخطيها.

في أيام الثلاثاء، كنت أخرج مع أبيهم أحيانًا، يعزمني على طعام على ضفة البحيرة. وفي الكثير من الأحيان، نلتقي في المكتبة، تجمعنا طاولة النقاشات كما اعتدنا في بدايات تعارفنا، وكنت أسعد بهذا كثيرًا. أما في البيت، فقد حدث أمر لم أكن أتوقعه؛ تحسنت العلاقة بيني وبين سيرين، وكانت المبادرة منها، وما كان علي سوى مبادلتها بها.

اهتمامها بي خلال مرضي كان معروفًا لن أنساه أبدًا. صرنا نتبادل أطراف الحديث ونتعامل بطيبة مع بعضنا، وأعلنا الصلح وتناسينا الماضي ودفناه مع موتانا. لست أعلم إن كان بقاؤنا وحيدتين في البيت هو السبب في تقاربنا، لكن المهم أننا لم نعد عدوتين.

على العكس تمامًا، ساءت علاقتها مع زوجها وصارا كثيري الشجار، وفي الغالب هي من كانت تفتعلها لسبب لست أعلمه. أما عن علاقتي به، فما كانت بتلك السلاسة؛ أتجنبه قدر الإمكان، ولا أرتاح حيثما يتواجد، رغم محاولاته للحديث معي أو الجلوس.

في البداية، حملت له كرهًا لا يُطاق، إلا أنني اكتشفت لاحقًا أنه ليس كرهًا بل "غير حب" وانطفاء. أدركت أنني لا أكره من جئت من صلبه، وإن شعرت بذلك في لحظات الغضب. لا ابنة تمقت أباها كغريب مهما اجتهد في تخييب ظنها وكسر قلبها.

الأب الطائش كالولد المشاغب أو المراهق المنحرف، وُجدوا ليخطئوا، ونحن لنتَفهم ونتغاضى عنْهم، لا بالمنطق بل بالقلب، فلو حكم المنطق على أفعالهم، لتعفّنوا في سجن الكُره، لكن لحسن حظهم، الأمور لا تسير على هذا النحو. ولا قدرة لنا على طردهم فهم أبناء قلوبنا بعد كلّ شيء

يحملون نفس زمرة دمنا وبيننا ذكريات طيبة، بيننا رباط، ولولا هذا الرباط الذي يجمع قلبينا ما تكلّمنا مجددًا. وبعد كل خيبة يُجبِروننا على عيشها، لا نكرههم ولا نرميهم، بل لا نكف عن توقّع تصرّفات أفضل، والانتظار حتى يعتدلوا. لهذا نتمسك بأقل الأمور برهانًا على تغيّرهم، ونحدّق بها منتظرين منها الإعلان، فتُعلن عن خيبة أخرى تُطيح بنا أرضًا مجددًا، وتجعلنا نقسم ثانيةً أنه لا ذرة خير في هذا الشخص. ويبقى السيناريو يتكرر حتى يملّ أحدنا.

أسمعه يتقلّب ليلًا، وأحيانًا يصرخ باسم والدتي، مما أكد لي أن شعورًا كريهًا بالذنب يلازمه جراء فعلته الأخيرة التي أودت بحياة زوجته. وهذا هو أشد عقاب له؛ فالندم بعد فوات الأوان جزاء عادلٌ لِلآثمين. لكنني، رغم هذا، أشفق عليه في بعض الأحيان، خصوصًا أن علامات الكِبَر بدأت تهاجم جسده، متمثلةً في مرض السكري وبعض الآلام في المفاصل، التي سببت له إزعاجًا كبيرًا..

كانت ليلة معتمة من ليالي ديسمبر، قد غاب فيها مصباح السماء الأبيض وتوارى خلف سحاب أسود يأبى أن يطل. كنتُ قد انتهيت من تنظيف

المطبخ منذ ساعة، فقضيت بعض الدقائق مستندة إلى كرسي الهزاز بعد أن نظفته. فتحت النافذة لأراقب الصمت وأشعر به قليلًا، وبالي يشغله العديد من الأمور.

بعد صمت دام بيني وبين السماء، قاطعتنا سيرين بدخولها:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ لا شيء، أراقب السماء.

ـ لكن لا قمر فيها.

ـحتى وإن كان فلا أحد يسهر على ضوئه

صحيح لأنّ البرد قارس في الخارج اغلقي النافذة وإلّا تمرضين .ـ

رفعت نظري نحوها لأوّل مرة منذ بداية الحديث وقلت:

ـِأنت هنا لتهتمي بي إن فعلت.

ابتسمت بتعاطف وسط الظلام الذي تجلس فيه لكنني شعرت بها تفعل، ثم استرسلت:

تعلمين أنّني كرهتك في البداية! ـ

ـحق العلم

ـ كرهتك لأنك حللت مكان أمي وسببت الألم لقلبها، وكرهتك لتصَرفاتك الصبيانية تلك.

ـ أعترف أنّه كان من الخطأ أن اتهمها يومذاك، تمنيت أن أعتذر لها عمّا بدر منّي معها صدقيني تمنيت! لقد أصابني الندم على معاملتي لها بتلك الطريقة منذ الليلة التي سهرت بها عند رأسي تغيّر الكمادة تلو الأخرى حتى شفيت، كان لها عليّ فضل كبير وكذلك أنتِ لم تقصّري، استحييت منكم جميعا.

ـهَل لي بسؤال؟

اسألي ـ

كيف ولماذا تزوّجتي من أبي؟ ـ

تنهدت تنهيدة عميقة وانزلقت من على حافة السرير لتجلس على الأرض ثم أسندت رقبتها على السرير و طالعتني بنظرة غرِيبة وقالت:

ـ كان خياري الوحيد!

ـلست أفهم!

ـ وراء هذه الزيجة قصة طويلة هل تسمعين؟

ـبكلّ انتباه.

قلتها ثم اعتدلت في جلستي وأبديت لها كلّ الاهتمام لما ستقوله.

ـ في الحقيقة أنا تعرفت على والدك في محل الثياب الّذي كنت أعمل به في السابق، كان زبونا وفيا لمحلنا، في البداية عاملته كالجميع لكنه كان يصرّ على تغيير معاملتي معه دون قصد منه. كان لطيفا، حنونا، و مفعمًا بالإيجابية على عكسي أنا تماما، كنت شابة مهجورة من قبل السعادة وبائسة حدّ الشفقة.

ولمَ هذا؟ـ

ـ نشأت بعائلة غريبة بعض الشيء، بل كثيرا. عندنا من تعبر جسر الثلاثين دون زواج حتما بها عيب أو خَطب جليّ، وفور حدوث هذا يغير الجميع طريقة المعاملة معها وينظرون إليها بعين نقص جارحة.

ـوكذلك في منطقتنا، الأمر عادي!

ـألا تفهمين قصدي، فهما سأشرح لك أو أخبرك عن طريقة المعاملة لن تستوعب إلّا لو شاهدتِ بعينيك، يقولون كلاما ويفعلون أمورا تجعلك تضعين كلمة «الزواج» صوب عينيك وتحدّقين بها طيلة اللّيال، وتسألين نفسك عن النقص الذي بك أو الخطأ الذي قمت به.

ـولماذا لم تتزوجي ألم يطلبك أحد من قبل؟

ـبلى فعلوا، لكنني أجبت بالرفض لكل من تقدّم على أمل أن يتقدم أحدهم، لكنه لم يفعل وبعدها كان الأوان قد فات.

ـ ولماذا لم يفعل؟

ـ اِدّعى الحبّ لفتاة أصغر سنا وأبهى طلة بعد أن أنفقت شبابي عليه، صارت سيرين صاحبة السابعة والعشرين ربيعا لا تروق سيادته، وبعده كرهت جنس الرجال حتى عبرت جسري وضيّعت محطتي وقطاري.

ـ لكنّك لست بذاك الكبر أنتِ في الثانية والثلاثين وليس الثمانين لا تبالغي!

المجتمع الذي نعيش فيه مقيد بسلاسل العادات والتقاليد، ولا فتاة ستسلم من ـ ألسنتهم إن خالفت معتقداتهم، حتى وإن كان الأمر خارجًا عن إرادته

ـ وما دور أبي في الموضوع؟

ـ في إحدى المرات، زارنا والدك كعادته. ألقى السلام ثم سألني عن حالي، وعند إجابتي لاحظ فورًا حالتي التي لا تسرّ، فطلب مني ملاقاته عند انتهائي من العمل، ووافقت.

ـ لحظة، سؤال... هل كنتِ على علم بأنه شخص متزوج؟

ـ والله، لم أكن أعلم، صدقيني.

ـ طيب، ماذا عن فارق السن؟ ألم تلاحظي أنه يكبرك بعشرين سنة؟

ـ بلى، فعلت، لكن الحضيض يجعلك تفكر وتقوم بأي شيء لتصعد منه مجددًا!

ـ مم، حسنًا، تابعي.

ـ بعد أن وافيته، تكلمنا كثيرًا وتعارفنا. قصصت عليه حكايتي المثيرة للشفقة، وتعاطف معي كثيرًا وصار يكثر من زياراته. صرتُ أبادله الكلام والسؤال والاتصالات، حتى شعرت بحب تجاهه. أخبرت الجميع في المنزل بأنني وجدت الشخص المناسب وسأتزوج قريبًا. لكن الصدمة جاءت بعد شهرين من علاقتنا، حين التقينا وأخبرني بأنه متزوج ولديه ثلاثة أولاد.

كانت دهشتي حينها لا تقاس بالكلام. حزنت كثيرًا وخاصمته لأيام، وقررت الابتعاد عنه. لكنني أدركت لاحقًا أن العائلة تنتظر خطيبًا، فاحترت في أمري ووقعت بين نارين.

ـ بعدها تزوجته؟ لكنه ليس عذرًا كافيًا لاقتحام حياة عائلة بأكملها، بغض النظر عن كونه المذنب الرئيسي.

ـ لا أبرر فعلتي، وأعترف بأنّني كنت مخطئة، لم يكن عليّ الإقدام على أمر كهذا، لكنني فقدت الأمل في الزواج إلى أن صادفت شخصًا يهتم، يحب ويحن. شتّت انتباهي وأعمى بَصيرتي عن الصواب والخطأ.

ـ وما كان رد فعل عائلتك عندما أخبرتهم بأنه متزوج؟

ـ لم يكترثوا فعليًا، كان همهم الوحيد أن أتخلص من العنوسة، حتى لو أخذت شيخًا على مشارف قبره.

ـ يحنّ عليك ولا يحنّ على عشيرة عمره! آه يا أبتاه، ما أخلط مفاهيمك ومبادئك.

ـ بغض النظر عن سعادتي غير المكتملة بعد زواجي، صدقيني حزنت لأجل والدتك. بكيت ليالي من عذاب الضمير، خصوصًا أن أهلي يملؤون رأسي بأفكار شيطانية و يحذّرونني من مصادقتها. يكررون دائمًا: "إنها ضرتك، فلا ترحِميها، وكوني أفضل منها"، وما شابه من فتن. لكنني تداركت نفسي عندما اتضح لي أنها شخص مسالم، لا يبغى سوى سعادة أولاده. وضعت نفسي مكانها، فما طقت الوضع.

أرجعت رأسي إلى الوراء دلالة على التفكير في كلامها، ثم قلت لها:

ـ قد حدث ما حدث، والكلام عن هذا لن يغير شيئًا. لنتناسى ما حصل، ونعيش أيامنا بسلام، وندعو لمن أكملوا نصيبهم منها.

ـ رحمهم الله.

ـ آمين.

استيقظت في ساعة متأخرة من صباح يوم اثنين مشمس. بدا لي الجو من خلف النافذة وكأنه يدعوني إلى الخروج واستنشاق بعض الهواء العليل والسير على طَرقاته، التي تبذل السيدة الشمس قصارى جهدها في تجفيفها لنحظى بخطى آمنة ليوم كامل، قبل أن تباغتنا شلالات السماء من جديد

نظرت إلى هاتفي بعد أن اهتز معلنًا عن وصول رسالة نصية. فتحتها وقرأت:

"صباحك كتب وقهوة. ترغبين في نزهة؟ الجو لا يقبل الماكثين في البيت هذا اليوم."

ابتسمت وكتبت له:

"ومن يرغب في البقاء في البيت أصلًا؟"

ثم غيرت ثيابي وخرجت لأقابِله.

لا تسألوني عن نوع العلاقة التي تجمعني بأيهم؛ فأنا نفسي لم أدرجها تحت أي مسمى، ولست أفكر بها إن صح القول. كما أنني لم أكلمه يومًا بهذا الشأن، وكذلك هو. ما أعرفه، وهو جلّ ما يهم، أن الابتسامة لا تفارق ملامحي

عند وجوده حولي. يتقن فني ببراعة، ويدرك أي الأوتار عليه أن يلاعبها لينفجر ضحكي. يتحسس مواضع الألم عندي ويخففها بلطف شديد، ويجتهد في إسعادي كمن يؤدي واجبًا نحو الوطن.

إن كان حبًا، فهو كذلك. وإن كانت صدَاقة، فلا اعتراض لدي. المهم أن الذي بيننا شيء نقي، بريء ومسالم؛ شيء أريد له أن يستمر.

بعد ربع ساعة قضيتها في الطريق، وصلت إلى وجهتي، أو بالأحرى وجهتنا... المكتبة. كنا قد اتفقنا على اللقاء هناك، ومن ثم سنمضي إلى مكان ما. لمحته من بعيد يلوّح لي بيسراه، ويحشر يمناه في جيب معطفه، ويخفض رقبته نحو كتفيه دلالة على البرد الذي يشعر به. كان قد لف وشاحًا أخضر غامقًا حول عنقه، واعتمر قبعة صوفية بنفس اللون. رغم أن الجو مشمس تقريبًا، إلا أن بعض خصَلاته الداكنة الشقراء تسللت من تحتها لتستنشق هواء ديسمبر دون أن يلاحظ.

اقتربت منه، متجاوزة برك المياه الصغيرة بقفزات متباعدة حتى وصلت إليه، ووقفت عنده قائلة:

ـ تشعر بالبرد؟

قال مشرعًا عينيه:

ـ إنني أتجمد، لنغادر في تلك الحافلة. أسرعي.

صعدنا الحافلة بسرعة، وبعد جلوسنا أخرجت قفازات شتوية كنت قد وضعتها في حقيبة يدي قبل خروجي وناولته إياها قائلة:

ـ خذ هذه، إنها أكثر دفئًا من جيوب معطفك.

ـ لكنك ستبردين.

ـ أنت من يشعر بالبرد الآن. لا تقلق، ارتدِها هيا.

ابتسم لي بلطف، ثم ارتداها وقال:

ـ أنا شخص صيفي يبرد بسرعة.

ـ لاحظت هذا.

ترجلنا بعدها عند منتزهنا المعتاد، وقضَينا قرابة أربع ساعات هناك، نتجول تارة ونجلس تارة أخرى. نقص النكات، نحكي القصص، ونناقش وجهات النظر حتى نفد الوقت منا. لست أعلم متى أصبحنا محطة استراحة لبعضنا البعض من أعباء الدنيا. فقد أخبرني سابقًا بأنه يرتاح لصحبتي كثيرًا، ويجد في نقاشاته معي حماسًا لا يخمد، وكذلك أنا.

عند وقوفي لتوديعه عند محطة الحافلة، استدار مواجهًا لي ثم حدق بي وقال:

ـ لدي شيء أحضرته من أجلك.

ـ حقًا؟ ما هو؟

أخرج علبة صغيرة من جيب معطفه الكشمير وناولني إياها باستحياء واضح. أخذتها منه وسألته عن محتواها، فأخبرني أن أفتحها لأرى بنفسي.

فتحتها لأجد بداخلها زوجًا من الأساور الفضية اللامعة، يتوسط كل واحدة منها حجر صغير بلون أخضر يبدو كزر. ابتسمت له وقلت:

ـ إنها جميلة جدًا. ما كان عليك أن تتعب نفسك.

فقال بحماس لطيف:

ـ إليكِ الأمر المثير للاهتمام بشأن هذه الأساور.

ضغط على حجر إحدى الأساور، فاشتعل حجر الأخرى بضوء أخضر فاتح. اندهشت كثيرًا وانبهرت بفكرة كهذه.

ـ يا لها من فكرة جميلة! أين وجدتها؟

ـ رأيت إعلانًا لها على إنستغرام، ففكرت في طلبها لأرى إن كانوا صادقين. واتضح أنهم كذلك. حسنا، واحدة لكِ والأخرى لي. يمكنك الضغط عليها متى شئت، وسيُشعل ضوئي تلقائيًا. إنها مثل رابط بيننا.

ـ متى سأضغطُ عليها؟

نظر إليّ نظرة جدية لا تخلو من الهدوء وقال:

ـ عندما تحزنين.

ـ هل ستظهر تلقائيًا بعد ضغطي عليها كَمارد المصباح؟ .

ـ من المحتمل، لمَ لا؟

ضحكنا سويًا ثم افترقنا بعد أن شكرته على هديته التي أسعدتني.

بعد عودتي إلى البيت، وقفت خارجه قبل الدخول، وتخيلت أنني سأمر من خلال بابه لأجد والدتي الحبيبة تطبخ طعامًا أحبه، ومنى تطلي أظافرها وتضع قناعًا للبشرة يُفزعني عند دخولي، وأحمد يرتب لوحاته العزيزة كعادته، أما أبي يُشاهد برنامجه في غرفة المعيشة.

تمنيت أن أستيقظ من هذا الكابوس الذي يأبى الانتهاء، ولن أتمنى شيئًا بعد هذا. لكن بمجرد أن فتحت الباب، لفحني هواء الواقع ببرود، وأيقظني من خيالي البائس. ناديت:

ـ سيرين!

لكنها لم تجبني. اتجهت أبحث عنها في المطبخ لكنها لم تكن هناك، فطرقت باب غرفتها.

ـ سيرين! هل أنتِ هنا؟

فتحت لي بعد قليل بمظهر غريب. كانت عيناها متورمتين كأنها بكت طويلًا.

ـ سيرين، ما الذي حدث؟!

لم تجبني، بل أجهشت في البكاء.

ـ ماذا حصل؟ أخبريني، لا تُخيفيني. هل حدث شيء لأحدهم؟ أين أبي؟ سيرين، تكلمي!

قالت بصوت متقطع وهي تحاول الكلام من بين دموعها، لكنّي التقطت شيئا منه:

ـ ضربني... لقد ضربني عبد الحميد.

اندَهشت بشدة لما سمعته، ثم سألتها:

ـ ماذا؟ لماذا؟ ماذا فعلتِ؟

لكنها استمرت في البكاء، وجلست على الأرض تضم ركبتيها إلى صدرها. جلست بجانبها، أشفق على حالها، وأسألها باستمرار:

ـ هل تشاجرتما مجددًا؟ على أي أمر؟

استجمعت نفسها، وارتشفت دموعها بصعوبة، ثم قالت بصوت مرتجف:

ـ كل ما في الأمر أن الطعام كان ينقصه ملح! لا أفهم سبب مبالغته في رد فعله، الأمر لم يستحق كل هذا الانفعال. وعندما أخبرته أنه أصبح عصبيًا ولا يُطاق، انفجر بي صارخًا ووجه لي صفعة مؤلمة. من شدة الصدمة لم أنهض مجددًا، وبعدها تركني وغادر البيت.

بصراحة، لم أستبعد أن تؤول تصرفاته إلى هذا النوع، فهذه شخصيته منذ قرابة العام، ولا شيء جديد. لكنني لن أنكر أنني لم أتوقع أن يطبقها على سيرين بهذه السرعة.

ـ لا تحزني، هذه البداية فقط.

نظرت إليّ بنظرة ارتياب واندهاش قائلة:

ـ ما الذي تقصدينه؟

ـ بحقك يا فتاة! هل ظننتِ أنك مميزة ولن يفعل معك ما فعله مع والدتي من قبل؟ كان عليك أن تحذري منه منذ تلك الليلة التي رأيته فيها يعنّفنا. لكن لا، أنتِ ازددتِ غرورًا، معتقدة أنه يتحول عند تعرضك للأذى، ولم تفهمي أنها شخصيته.

خفضت نظرها ثم أجهشت في البكاء مرة أخرى. ربتُّ على كتفها قليلًا، ثم غادرتُها. وبصراحة زائدة، دون تظاهر، لم أشفق عليها كثيرًا؛ بل جزء مني يشمت بها عند تذكري الليلة التي ضرب فيها والدتي مثلها. حسنًا، يبدو أن الحياة تدور حقًا في النهاية.

لم يعجبني تصرفه كالعادة، بل أزعجني. لكنني لم أعلّق على الموضوع عند مجيئه، واكتفيت بالصمت. لكن تلك لم تكن آخر مرة، فالضرب استمر، واستمرت هي في ذرف دموع الخيبة التي جفت عندي. أصبح يصبّ جل غضبه على من وجد أمامه، زوجته سيرين المطيعة. أما أنا، فما كان يراني حتى يكلمني، وإن فعل، فالشُّعور بالذنب يتملكه ويمنعه عن النظر في عيني؛ لأنني كنت أذكّره بذنوبه الماضية.

ساءت حالته كثيرًا بعد هذا، ودخل عالمًا غير عالمه السابق. صار يقضي وقته خارج المنزل، سواء بالليل أو النهار، وإن حضر، يتشاجر مع زوجته التي

تعارض تصرفاته بشدة، إلى أن ينتهي بهما الأمر كالمَضروب والضارب، وأنا ملتزمة بدور الجمهور.

طلبت مني سيرين عدة مرات أن أتحدث معه وأطلب منه التوقف عن ما يفعله، واستعادة نفسه. لكنني رفضت رفضًا قاطعًا، وأخبرتها أنني لن أتدخل مهما حييت في ما يفعله، فهو حر طليق ما دام لا يؤذيني في شيء. فألقت عليّ خطابًا يحتوي كلمات مثل: "هو والدك"، و"كيف لك ألا تهتمي له إن كان يؤذي نفسه؟". فأجبتها بأنني لا أحمل ضغينة ضده، لكن لديه ملفًا كبيرًا بحوزتي كان كفيلًا بسقوطه من قلبي وإغلاقه قبل دخوله مجددًا.

نصحتها بالصبر أو الرحيل إن استطاعت، متوقعة منها أن تطبق الاقتراح الأول، نظرًا لظروفها العائلية. لكنّها كانت أقوى مما ظننت. في إحدى المرات، احتد النقاش بينهما لدرجة أنه كسر ذراعها بعد ضربه لها. هرعت إليها بعد صراخها المستمر، و أَبعدتها عنه، وكلي غضب. ثم وجهت له بعض الكلام عن مدى قسوة قلبه ومرضه العقلي، وعن كونه شخصًا لا يُطاق. أخذتها إلى غرفتها، وجلست أهدّئ من روعها.

لاحظت أنها لا تبكي كعادتها، مما أثار في قلبي فزعًا. وفجأة، دون سابق إنذار، نهضت لتُخرج حقيبتها، وبدأت تجمع ثيابها وأغراضها، تهمّ بالرحيل. جلست أراقبها فقط، وجملة "لا ترحلي" تأبى الإفلات من بين أسناني. بأي حق سأطلب منها هذا؟ ولأجل من؟ اعتقدت أنها سترحل لبعض الوقت ثم

تعود عند زوال الغضب، لكن ما عاد هو ورقة طلب الطلاق بعد أسبوع!

لن أنكر أنني حزنت كثيرًا عندها، خصوصًا أنه وقع على الورقة دون أن يرف له جفن، بكل بساطة. اندهشت حقًا هذه المرة من برودة مشاعره أو انعدامها، فأيّ شخص هذا الذي يطلق دون معارضة حتى، ومن جلسة واحدة، كأنهما ما عاشا يومًا برفقة بعضهما؟ هي معذورة؛ فقد ضاقت به ذرعًا وبِمبادئه التي لا يملك.

بعد رحيل سيرين، صرنا وحدنا: أنا وهو! كأننا نواجه بعضنا بعد سنوات من التباعد وادعاء الانشغال. أُجبرت قسرًا على محادثته كل يوم والاحتكاك به أكثر من ذي قبل، لكن بعدها تفاقم سوء حالته. لم يعد أرملاً مطلقًا فقط، بل صار سكيرًا!

في البداية، كان يعود إلى البيت مخدرًا، تنبعث منه رائحة مقرفة توحي باستهلاكِه زجاجتين أو أكثر. ثم صار يحضرها معه ويضعها حتى في الثلاجة. جنّ جنوني وصرت افتعل شجارات معه بسبب ما يفعله، وترجيته أن يتوقف، لكنه لم يعد يبالي. بدا لي كشخص فقد الأمل في الحياة وفضل التخلي عنها والانشغال بشراب يغيبه عن الوعي لنصف اليوم.

ضاقت حياتي أنا الأخرى، وانعدمت راحتي. صرت شخصًا عصبيًا حدّ الجنون جراء أفعاله. أصبحت أستيقظ في منتصف الليل لاستقباله متمايلًا، يهذي بأمور غير مفهومة، ثم يعود إلى وعيه فيكسر الأشياء ويصرخ محتجًا

على نفسه وعلى عدة أشخاص، منهم سيرين، ثم يبكي ندمًا حتى يغفو، ويستيقظ صباحًا لِيعيد الكرّة.

أخبرت أيهم بالأمر، فنصحني بالذهاب إلى إمام المسجد وسُؤاله عن الحل. فعلت كما طلب، وعند سؤالي الإمام، أجابني بأن أنصحه بالابتعاد عن الشراب قدر ما أستطيع، وأدعو له بالهداية عند الصلاة، ولا حل غير هذا.

غريبة هي الدنيا حقًا، تخبئ أمورًا يستحيل على عقل بشري توقعها. من كان يتخيل أن حال عبد الحميد سيؤول يومًا إلى هذا؟ كان أبًا صالحًا، شخصًا لا يضيع صلاته، محبًا لعائلته. من كان يعلم أن أمي لن تكمل ما بدأته مع زوجها، وقدّر الله لها أن ترحل بعد عناء؟ ومن قال إن أحمد سيمضي قبل تخرجه بأشهر، ولن يتزوج أشواق، ولن يحقق أيًا من أحلامه؟ و ستباغِته المنّية جرّاء تصرّف طائش

وحتما من كان ليعلم بأن قلب دارين سيتفتّت بهكذا طريقة، فقد كانت القفة التي تحمل أتعاب الجميع، لكنّه لم يعد يطيق تعبها. لا ضمان في هذه الدنيا إلا الله، فلا تكن واثقًا مما تفعله، فالحياة ميزان يتحكم به القدر، قد يفضّل كفة على الأخرى متى يشاء، وقد يهدم الميزان إن أراد.

بعد عودتي من عند الإمام، وجدت أبي جالسًا على الأريكة يمسك رأسه من شدة الألم؛ تلك عواقب السهر والشراب حتمًا. نزعت معطفي، وجلست

أمامه بكل انطفاء، ثم قلت:

ـ أبي.

لم يجبني.

ـ لماذا؟

رفع رأسه مستغربًا وقال:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ ما الذي حدث لك حتى تلجأ إلى قوارير الخمر الملعون ذاك؟

ـ أبقي نفسكِ خارج أموري الشخصية.

ـ هل أنت نادم؟

ـ على ماذا سأندم؟

قالها ساخرًا.

ـ ربما لأنك لم تستمر في دور الأب الجيد؟

ـ بلى فعلت، أنتم من لم تقدروا مجهوداتي يوما.

ـ مجهوداتك في مجازاة المرأة التي أفنت أيّامها في خدمتك بتلك الطريقة؟ اخرسي !ـ

بدا عليه الغضب:

ـ أو لأنك أرسلت ابنك الوحيد إلى الموت دون أن يرفّ لك جفن؟

صرخ:

ـ قلت لك اخرسي!

ـ أم عن نفور الفتاة التي جلبتها لتُحاربنا بها منك؟

بدا عليه الانزعاج أكثر، وبدأ يهددني. لكنني لم أتوقف.

ـ ؟ كونك السبب في دمار هذا المنزل، وخسارتنا لقب العائلة!

ثم نهضت أنا الأخرى وخرجت من هدوئي وكلّمته بنبرة عالية:

ـ أنت السبب، ولا شيء سيغير هذا. أنت نادم أشد الندم على ما فاتك وعلى ما أضعت، هذا واضح كوضوح الشمس. أنت وحيد، وحيد جدًا جرّاء أفعالك ونواياك تلك..الثانية عشر صباحا صرت الآن وحيدا .

نهض هذه المرة وأَمسكَني من رقبتي بغضب عارم، و عيناه تشتعلان نارًا، لكنني لم أقاوم ولم أتحرك حتى، بل سمّرت عيني بعينيه وقلت من بين قبضته:

ـ أنت الآثم الأكبر، أكثرنا إثما.

وبعد أن صعّب عليّ التنفس وشعر بأنّ عيناي ستخْرجان من محجرهما أفلَتني ثم وجّه لي صفعة قوية أردتني أرضا، وقال:

ـ اخرجي من بيتي! لا أريد أن أراكِ هنا عندما أعود، وإلاَّ سأظفر بروحكِ.

قالها ثم التفت ليهم بالخروج، لكنه سمع صوت زجاج ينكسر؛ قارورة خمره التي كانت بجانبي، ورأى عينان شديدتا الخضرة قد حيّزهما الأحمر من شدّة الغضب، تشتعلان ألما وحقدا كان يختبئ ليظهر في الوقت المناسب

بعد استفزاز كثير، كان ذلك آخر ما يراه بعد تدفق دمائه على سجاد الغرفة لتشرب منه وترتوي.

أما عن الذي رأته دارين فكان سيارة بيضاء يزينها الأحمر والكثير من الناس، مركز الشرطة الذي لم تمكث به كثيرا ثم بناء بعيد أعطوها به سريرا وثيابا جديدة وتشخِيصا معنونا بِـ «اضطراب نفسي»

تمت بحمد الله.